١٢٩

روايات احلام

مسافر بلا طريق

www.elromancia.com

مرمورية

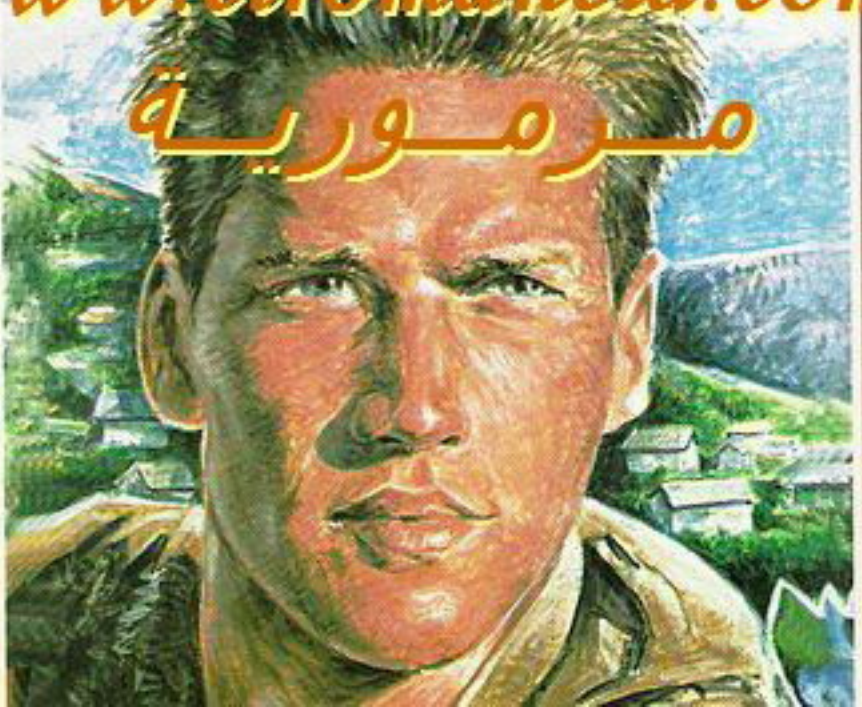

روايات احلام

مسافر بلا طريق

كيف يمكن أن تربط حياتها برجل تخافه وتكرهه؟ وهل تستطيع وصية والدها الراحل أن تزيل التناقضات بين سيلا الرقيقة الخجولة وبين رايون دوبار المزارع المتوحش الذي لا يقيم وزناً للمشاعر ؟

اذا استطاع رباط الزوجية أن يجمعهما فإن ما يفرّق بينهما أكبر بكثير، وليس أقله عدم اهتمام رايون بها وعلاقته العلنية مع الجميلة هاربيت ، فكيف تستطيع سيلا أن تعيش معه خاصة أنه أول رجل يدخل إلى حياتها ؟

١ ـ الموت لا ينتظر

كان ضباب رذاذي رمادي يرشح بين أغصان الأشجار العارية فبلل أكتاف المحزونين القلائل المتحلقين حول القبر المفتوح. . إنه يوم ملائم لجنازة. . منذ الصباح الباكر طافت الغيوم فوق الوادي. . وهبَّت ريح باردة فيه. كان المدفن راقداً على سفح التل فوق القرية وكانت القبور الكالحة عرضة لرذاذ المطر ولأوراق الشجر المتطايرة. . حلَّ الخريف متأخراً في الوادي ولكنه الآن هنا. . ارتجفت سيلا على الرغم من المعطف والسروال السميك.

عقدت ذراعيها حولها بشدة وكأنما لتبعد عنها البرد الذي كان بمعظمه قادماً من داخلها، لا من الخارج. . وجدت رغم وقار المناسبة ومقابض التابوت النحاسية، الراقد في مكان من الأرض، أن كل ما يحدث صعب التصديق. . أمن الممكن في بحر أربعة أسابيع قصيرة أن تتغير حياتها على هذا الشكل الدرامي، بحيث باتت لا تعرف أن هذه الحياة حياتها؟

منذ أربعة أسابيع ماتت خالتها هولي، ولعل ما خفف وطأة حزنها الرسالة التي تركتها الخالة. . وهي رسالة ذكرت فيها عنوان والدها وتوسلت إليها أن تذهب لتراه. . فمنذ وفاة والدة سيلا قبل خمس سنوات، دأبت الخالة هولي على التحدث عن والدها لتخفف من حدة المرارة التي أحست بها دائماً نحوه بسبب أمها. وحاولت الخالة هولي أن تجعلها ترى أن لويس داموراي لم يكن وحده الملام على انفصام عرى زواج والديها، فقد ارتكب كلا الطرفين الأخطاء ومن أهمها رفض أمها العودة معه إلى

فرنسا.

فكرت سيلا طويلاً قبل الاتصال بأبيها.. فقد مرت عشر سنوات منذ رأته لآخر مرة، وكانت يومذاك مجرد طفلة في التاسعة غير قادرة على إطلاق حكم على أبيها وطبيعته كرجل. ولكن ما إن أدركت أنها بموت خالتها قد أصبحت وحيدة في الدنيا، اقتنعت بكتابة رسالة تخبره فيها بموت خالتها. وما أسرع ما كان رده الذي جاء على شكل دعوة يحثها فيها على ترك عملها كمساعدة في مكتبة في بلدة صغيرة على الساحل الجنوبي، لتنضم إليه في «بلياز» في الوادي الذي يضم نهر «الرون».. كروم عائلة داموراي هناك، وهي إرث أبيها.

في الأيام التالية فكرت سيلا برغبة أبيها.. نعم أبوها فرنسي ولكنها ليست فرنسية، مع أنها تتكلم الفرنسية لا بسبب الخبرة بل بسبب دراستها في المدرسة.. إنها لخطوة كبيرة، فكيف يتوقع منها أن تترك عملها وحياتها وانكلترا لتبدأ حياة جديدة في بلد غريب.

درست الأمر مطولاً مع محامي خالتها.. وكانت هذه الدراسة الدافع الذي جعلها توافق على الذهاب، فقد قيل لها إن منزل خالتها مؤجر ومالكه يطالب باستلامه في أسرع وقت ممكن.. أما المال الذي تركته الخالة فهو لا يكاد يسدّد نفقات الجنازة، أما ما تجنيه فلا يمكنها من استئجار شقة في هذه الأيام. وإن بقيت في انكلترا فعليها استئجار غرفة في منزل، وهذا ما أوقعها في اليأس.

كان القسيس يتابع دندنته المعتادة فشعرت سيلا بجفاف في حلقها.. أتوقع أحد أن يلعب القدر هذه اللعبة القاسية معها؟ لو كانت تعرف أن أباها سيموت بنوبة قلبية بعد أربعة أيام من وصولها إلى فرنسا، هل كانت ستأتي؟

إنها لا تدري فقد كان لقاؤها بوالدها بعد كل تلك السنوات تجربة حلوة مرّة.. بدا لها أكبر سناً مما توقعت، نحيلاً رمادي الخدين، لا يشبه أبداً ذلك الرجل الأسود الشعر الذي تتذكره قليلاً... ولكنها لم تكن تعرف بأمر مرضه..

بدد سروره برؤيتها شيئاً من الحزن الذي أحست به بسبب موت خالتها.. مع أن هناك أموراً لا يمكن أن تمحى بسهولة، إلا أنهما شعرا بتجاذب روحي كان الزمن والخبرة سيقويانه بلا أدنى شك. لقد مضى على طلاق أمها من الزوج الفرنسي ثماني سنوات ولكنه لم يتزوج ثانية.. وكانت سيلا ابنته الوحيدة.. والواقع أنه لم يكن لديها فكرة عن نواياه.

رفعت الآن بصرها لتنظر إلى رجل كان واقفاً بمفرده على الجانب الآخر.. إنه رايون دوبار شريك والدها، مع أنها لم تكن تعرف بوجود شريك حتى التقت بالرجل.

ما إن ارتفعت عيناه السمراوان إليها حتى أشاحت بصرها.. لقد تبادلا في ذلك الصباح كلمات لا تريد أن تذكرها إلا إذا اضطرت. ومع ذلك لم يمنعها هذا من الارتعاش بسبب ما جرى.

كان القسيس يرمي حفنة تراب على التابوت.. ورن صوت التراب بفراغ وهو يصدم الخشب القاسي، فكرت سيلا حزينة كم من وقت يحتاج الجسد للاهتراء في هذه الأرض الرطبة.. ليس طويلاً.. ارتدت خطوة إلى الوراء فشعرت بدوار، ولعل السبب عدم تناولها طعاماً منذ الصباح. وسيطر عليها الرعب فقد خشيت أن تصاب بدوار وتهوى إلى القبر.

بدا أن المراسم المختصرة انتهت، وتحرك القسيس من مكانه وأخذ يتحدث هامساً مع رايون دوبار.. لم تستطع سيلا وهي تراهما إلا التساؤل عما يتباحثانه بهذا الاهتمام.. ألحديثهما علاقة بها؟ طافت عيناها بجسد القسيس الرافل بثوبه الكهنوتي، الأب باتريك. إنه نحيل صغير الجسم ولعل ما زاد من بروز طول ذاك الرجل القوي ضآلة حجم الكاهن. كان يحني رأسه مصغياً إلى ما يقوله القسيس.. رايون دوبار رجل ضخم، إنه لا يشبه أبداً أباها الذي كان شريكه. ما إن رأته حتى شعرت تجاهه بكره شديد، والسبب بلا ريب سوء خلقه وافتقاره إلى معاملتها بأدب. فيما كانت تنظر إليه لاحظت قسمات وجهه القوية، وعنقه الثخينة، وكتفيه العريضتين المربعتين والساقين القويتين، وأحست أنها غير قادرة على مواجهة ما هو آتٍ. لا تعرف لماذا يخيفها هكذا. ركزت اهتمامها على

معطفه الرث، وعلى شعره الأشعث في محاولة منها للتخفيف من خوفها.. هو ليس رجلاً وسيماً، مع أن بعض النساء قد يجدنه جذاباً ولكنها تنفر منه. كانت تنظر إليه كفلاح ولا تجد سروراً في صحبته.. ولقد كرهت اعتماد والدها الواضح عليه في كل شيء.. الآن بعد وفاة والدها ترفض تسلطه عليها.

لكن ما هي هذه السلطة؟ ضربت حذاءها بنفاد صبر على الأرض الحجرية.. لا يمكنها أن تضع إصبعها على شيء مع ذلك فهو سيسيطر على مستقبلها وكأن والدها تركها في عهدته.. لماذا فعل والدها هذا؟ لماذا جعل الوضع مستحيلاً هكذا؟ أهو انتقام أخير من زوجته المتوفاة؟ لا تعرف.. كل ما تعرفه أنها الآن في موقف مذل لم تشهد مثله في حياتها كلها.

تقدم منها الأب باتريك يهز رأسه الرمادي أمام السماء المتلبدة.. وقال بلغته الفرنسية:

- إنه يوم حزين سيلا.. فلنعد إلى الدفء قرب الموقد.

أجبرت سيلا نفسها على الابتسام وسمحت له أن يمسك ذراعها ليقودها بعيداً عن المدفن.. أدركت أن رايون دوبار يتبعهما ومن ورائه القرويون القلائل الذين جاؤوا لوداع والدها.. رأت سيارة نقل سوداء مغبرة تنتظر على طريق المدفن المرصوف بالحصى. ما إن اقتربا منها حتى تقدم رايون دوبار أمامها ليفتح الأبواب.. طار معطفه الرث في الهواء فبانت بزته السوداء التي كان لها أيام أفضل من هذه بكثير.. مع ذلك كانت عجرفته تتحدى أي كان أن يقلل من أهميته.

تجنبت عينيه ثم صعدت إلى مؤخرة السيارة ليجلس الأب باتريك في المقدمة أما دوبار فجلس مكانه وراء المقود.. ألقت سيلا نظرة أخرى إلى الوراء، كان الحفّار يملأ الفراغ فوق التابوت بالتراب، فارتدت بسرعة وحنجرتها تضيق كما فعلت أكثر من مرة في الأيام القليلة الماضية.

كان الأب ودوبار يتكلمان فحاولت فهم ما يقولان ولكنهما كانا يتحدثان بسرعة وبصوت منخفض فتخلت عن محاولتها وراحت تصغي

إلى أفكارها.

ماذا ستفعل؟ انكمش كيانها كله اشمئزازاً من المستقبل الذي خططه لها والدها.. مع ذلك فهي صادقة مع نفسها بحيث تعرف أن على هذا المستقبل المرسوم لها أن يُدرس من كافة وجوهه.. هذا هو نصفها الفرنسي.. التفكير الفرنسي العملي البعيد عن تحكم العاطفة.

كانت السيارة تنزل إلى الوادي. نظرت من نافذة السيارة بكآبة فبدا لها الوادي قاحلاً ونائياً. إنه مكان يعتمد فيه الناس على بعضهم البعض من أجل العيش.

السطح العريض في أسفل المدرجات حيث تنمو الكرمة كان يهدده دائماً طوفان ماء نهر الباجو.. في القرية كنيسة واسعة وشارع واحد ضيق مرصوف بالحجارة السوداء المربعة، تخلو منها الحياة في الشتاء. وفي القرية أيضاً أكواخ تصطف على جانبي الطريق ومخازن ومرآب، ومدرسة. خارج القرية تتسع الطريق، وتتلوى صعوداً مرة أخرى نحو جدران منزل أبيها.. إنه بناء واسع، أرضه الحجرية تبعث البرودة في قدميها، مع ذلك فهو بيت جذاب، بيت له شخصيته، حين كان والدها حياً كان يملأه دفئاً. شعرت بالرعب يملأ قلبها من فكرة العودة إلى هذا المنزل مع هذا الغريب الرقيق الشفتين الجالس قرب الأب باتريك.

أوقف رايون دوبار السيارة «الستايشن» قرب بوابة منزل القسيس الصغيرة..

أرجع القسيس رأسه ليتكلم إليها:

- لا تكوني مرعوبة هكذا يا طفلتي.. للقدر يد غريبة أحياناً. أنا آت لأراك غداً واحمدي الله على هذه الأيام التي أمضيتها مع أبيك.. كان يمكن أن يموت بدون أن يعرف كيف أصبحت امرأة شابة جميلة.

تمكنت سيلا من الابتسام: «شكراً لك».

- فليحفظك الله طفلتي.. وليحفظك أنت رايون.

وترجل الأب من المركبة مباركاً.. وتحركت السيارة مجدداً.. وسرعان ما أصبح الكاهن طيفاً ضبابياً اختفى في عتمة العصر المتجهم.

ضغطت سيلا كتفيها على جلد المقعد خلفها.. إنها تحاول جاهدة عدم الاستسلام للقشعريرة التي تسري في ظهرها.. عليها بطريقة ما جمع قوتها لمواجهة ما هو آتٍ.. والتذكر بأن مصيرها بين يديها.. لكنها الآن تشعر بوحدة أكبر مما شعرت بها بعد موت خالتها.

حين انعطفت السيارة عبر مدخل من الخشب إلى باحة مرصوفة بالحجارة خلف المنزل كان الظلام يرخي سدوله.. وتشتت الدجاجات الباحثات عن الطعام بين علف الحيوانات قرب حظيرة الماشية. كان وقع المطر المنهمر من المزاريب الممتلئة، يضفي جواً سوداوياً على المكان.. ولم يكن هناك أنوار أو رائحة طعام تدغدغ الأنوف.. وبدا المكان مهجوراً.

أوقف رايون دوبار السيارة تحت أغصان شجرة عارية، يستطيع المرء صيفاً أن يجلس تحتها على المقعد الخشبي الذي يحيط بها.. وتساءلت سيلا كم كان والدها يجلس تحت هذه الشجرة، يدخن غليونه ويفكر ربما بزوجته وابنته القاطنتين في انكلترا.. بعد الآن لن يجلس على هذا المقعد أحد.. إنه مبتل كثيراً، وبارد، والريح التي تهبّ من الجبل قادرة على اختراق أسمك الملابس.

فتح رايون دوبار بابه ونزل من السيارة.. وفتح الباب الخلفي.. ثم تركها ليتوجه إلى المنزل.

جلست سيلا بلا حراك في السيارة دقائق، وكانت بذلك تؤخر اللحظة التي يجب فيها أن تغادر السيارة للحاق به.. أضيئت الأنوار في المطبخ، وعلى نورها رأته يملأ إبريق الماء ويضعه على النار.. سحبت نفساً عميقاً وعرفت أنه قد يظهر في أية لحظة على الباب متسائلاً عن سبب تأخرها فدفعت ساقيها إلى الخارج ووقفت.

المطبخ كبير وهو بمعظمه معد لتناول الطعام ولكن فيه روافد خشبية ضخمة تتدلى منها حبال البصل التي لا مفر من وجودها.. الموقد واسع ومملوء حطباً، ولكن الفرن الملحق به استعيض عنه بطباخ غازي حديث نسبياً.. في الوقت الحاضر، كانت النار تشتعل بغضب، مع ذلك كان

رايون يضيف إليها الحطب الذي سرعان ما كان يتلقفه اللهيب.. وفي هذا المطبخ مائدة خشبية قديمة ما تزال محضرة بالخبز واللحم المجفف الذي وضعه مضيفها غير الراغب استعداداً للغداء قبل أن يخرج إلى الجنازة، الإنارة في المبنى كانت كهربائية وهذا ترف يوفره لهم مولدهم الخاص.

ارتد رايون دوبار عن النار فشاهدها تقف بالباب... فقال عابساً:

ـ ألا تظنين أن الوقت قد حان لتتكلم؟

كان يتكلم الفرنسية ولكنها اختارت الرد بالإنكليزية مع أنها تعرف أن إنكليزيته غير جيدة، وقد لا يفهمها.

ـ بعد مواجهتنا الصباحية اعتقدت أن خلافاتنا تفوق أي حديث يدور بيننا، وأية اعتبارات أخرى.

اشتد ضغطه على شفتيه بسبب الكلمات المختارة.. خافت مما قد يفعل.. تقدم نحوها، ولكن حين تراجعت تجاهلها وأقفل باب المطبخ بحيث أصبحا ضمن التوتر المتجمع في المطبخ.. ثم خلع معطفه فسترته، وعلقهما على كرسي ثم رفع أكمامه. كانت ذراعاه قويتين مفتولتي العضلات، زاد من اسمرارهما تأثير الشمس فيهما. ياقته حين أرخاها كشفت عن صدر عريض... هكذا رأته للمرة الأولى قادماً من الحقول، لم يكن يدرك مدى جاذبيته الفجة.. وربما هذا بالضبط ما أثار فيها الإحساس بالقرف، فهي لم تعتد على الرجال في مثل هذه الحالة. فقد ترعرعت في منزل نساء، أما الشبان الذين صادفتهم في عملها فلم يكونوا كرايون دوبار.

أشاحت بوجهها عنه ودنت من النار تمد يديها الباردتين إلى اللهيب.. قرب المدفأة مقعدان خشبيان، جلست على أحدهما تتماسك بشدة. حين وصلت إلى هذا المكان أي منذ أسبوع، أحست بأنها تعود إلى بيتها الأصلي.. هذا المنزل الذي ذكرها بالكثير من منازل المزارع في انكلترا، بموقده المتقد بدل التدفئة المركزية، وبرائحة الخبز المنزلي الذي تحضره مدبرة المنزل في الفرن الملاصق للموقد، كانت أشياء أدفأتها وأدخلت الغبطة إلى قلبها.. ولكن والدها مات وليس لديها فكرة عما إذا

كانت لودي مدبرة المنزل عائدة. لقد رحلت إلى عائلتها منذ يومين، ولم ترغب سيلا أن تسألها.. أضف إلى هذا أن الأمر غير مهم لها فهي ستغادر المكان قريباً.

بدأ إبريق الماء يغلي وسمعت رايون يحضر الفناجين وإبريق الحليب.. أعد الشاي، وهي عادة اكتسبها والدها خلال سنواته في انكلترا.. حين جهز الشاي قدم لها فنجاناً فتناولته كارهة:

ـ شكراً لك.

سأل أخيراً: «ماذا ستفعلين؟»

ردت بلغته: «تعرف ماذا سأفعل سيدي».

ـ حقاً! أعرف؟

ـ لقد سبق أن شرحت لك هذا الصباح أنني لا أنوي أبداً البقاء هنا.

ـ ولمَ لا؟

ـ لِمَ لا؟ قد يكون والدي فرنسياً، لكنني إنكليزية! ولا أنوي أبداً إرضاء رغبة مجنونة حلم بها والدي!

ـ ولماذا هي مجنونة؟ أنا أرى أنها أفضل حل منطقي لمشاكلك.

فتحت سيلا معطفها بسبب شعورها بحرارة مفاجئة:

ـ يؤسفني أن أخيب أملك.. لكنني لا أستطيع الموافقة.

جلس على المقعد الخشبي المقابل، يداه ممدودتان بينهما.

ـ سيلا.

كانت طريقة لفظه لفظه اسمها غريبة النغم:

ـ سيلا.. ماذا تنوين أن تفعلي إن عدت إلى انكلترا؟ ليس لديك عمل وأعرف أنك لا تملكين المال..

ـ أوه.. أجل.. أعرف أنك تعرف هذا!

كتم غيظه:

ـ لا أنكر أن اعتمادك المفاجيء على أب لم تريه منذ عشر سنوات أمر لا يثير الإعجاب.. ولكنني أعترف أن وجودك هنا أرضى نفسه كثيراً في أيامه الأخيرة.

ردت بحدة مهينة:

ـ وهل يجب أن أشكرك على هذا الكلام؟

تجاهل ردها:

ـ أنت شابة سيلا، وصغيرة.. لكن ما إن تتقدمي بالسن حتى تتعلمي أن العالم قد يكون مكاناً بارداً لمن ليس له عمل أو منزل أو مال.

أجبرت نفسها على النظر إلى النار:

ـ سأتدبر أمري.

ـ حقاً؟ أخبريني رجاءً كيف تنوين العودة إلى انكلترا؟ فقد أخبرني والدك أنك استخدمت كل ما تملكين للوصول إلى هنا.

التفتت بحدة: «أنا.. سأقترض مالاً».

ـ ممن؟

ـ أنت لن تعرضه عليّ على ما أعتقد؟

هز رأسه: «أوه.. لا».

ضغطت شفتيها:

ـ سأكلم الأب باتريك..

ـ ليس لدى الأب باتريك ما يكفيه ليعيل نفسه.. إن رجال الدين لا يتقاضون هنا رواتب جيدة وهم لا يعيشون في منازل كبيرة، أو يشترون سيارات جديدة كل سنة.

ردت ساخرة: «يبدو أنك تعرف الكثير عن هذا».

ـ لقد كنت في انكلترا، وقرأت الكتب.. لست ذلك البربري الذي تتصورين.

تورد وجهها ولكنها قالت بإصرار:

ـ سأتدبر أمري بطريقة ما.

هز رايون دوبار كتفيه بغير اكتراث؛ ثم وقف ليسكب المزيد من الشاي في فنجانه.. حين عاد إلى مقعده نظر مجدداً إلى سيلا.

ـ كل ما في الحياة ينضج مع الزمن صغيرتي.. كل شيء قد يبدأ قاسياً مريراً.. مثلك، ثم يصبح حلواً ناضجاً.

www.elromancia.com

- وفر عليّ عظتك سيدي.. ما كان يجب المجيء إلى هنا. ما كان يجب أن أكتب إلى أبي.

- أتعتقدين أنه لولا رسالتك إلى والدك لما وصلت إلى هذا الموقف؟ أؤكد لك أن هذا كان سيحصل.

- ماذا تعني؟

- لم يكتب والدك وصيته في الأيام القليلة التي كنت فيها في فرنسا.. وقراره هذا اتخذه منذ وقت.

- وكنت تعرفه؟

تردد رايون: «ليس تماماً.. لا».

هزت رأسها: أتصدق أن والدي كان سيضع الشروط ذاتها لو كانت خالتي على قيد الحياة؟

- نعم ما كان ليغيرها.

وقفت سيلا مترنحة وسارت في الغرفة وهي تشعر بدوار:

- لكن.. لماذا؟ لماذا؟

- لأن هذا ما أراده.

- وأنت.. لم تعترض؟

- فلنقل إنني.. لم أهتم، بطريقة أو بأخرى.

أحست سيلا بالغثيان.. قالت بصوت أجش: لا أستطيع أن أتزوجك مسيو.. رجاء دعنا لا نتكلم عن الأمر.

نظر إليها رايون دوبار بنفاد صبر:

- أفي انكلترا شخص ما؟

- لا.

- إذن لِمَ اعتراضك؟

- لقد سبق أن شرحت لك.

- لم تقولي إلا أنك غير قادرة على الزواج بي.. لا.. بل أنك لن تتزوجيني! وأنك تؤمنين بأنني استغليت والدك بقبولي شراكة ليس معي ما أقدمه فيها غير قوتي.

سحبت سيلا نفساً عميقاً:

- نصف كروم العنب ملكك سيدي.. ألا يكفيك هذا؟

- والنصف الآخر سيكون إن رفضت لليون أوكلير، أكبر منافس له. أهذا ما تريدينه أيتها الآنسة الإنكليزية؟

- لا، ليس هذا ما أريده، ولكن قبولك بحصتك لا يشمل الزواج بـ.. بشخص.. بشخص..

أنهى عنها جملتها: «تكرهينه؟ أجل، أعرف نظرتك إليّ مدموزيل. على أي حال، لا تهمني مشاعرك، بل ما يهمني فقط هو كروم العنب، وأنا أعرف أن والدك يعتمد عليك لفهم مشاعره في هذا الاتجاه».

انفجرت بحرارة: «إذن لماذا فعل هذا؟»

أنهى رايون فنجانه ووقف يعلوها كالطود. كانت فتاة طويلة ولكنه أضخم منها وأعرض بل أنه كان يقزّمها..

قال ببرود:

- إما أنك بليدة الذهن وإما أنك غبية. فكري في الموقف.. أعجبك هذا أم لم يعجبك، كان والدك بحاجة إليّ.. لم يكن قوياً، وهو مريض منذ سنوات عديدة.. ولقد حذره الأطباء بأن عليه التوقف عن العمل.. لكن زراعة العنب حياته.. وإرثه.. لقد أخبرني أن والدتك لم تتقبل هذا.. كانت امرأة غبية باردة تحب قضاء الوقت في لعب البريدج على العمل في الحقول..

حاولت الاعتراض فقاطعها:

- أوه.. هذا تفسيري أنا لا تفسيره، فطالما تحدث والدك دائماً بإجلال عن أمك.. إذن.. هذا هو الموقف، حين عرف والدك أنه موشك على الموت حار ماذا يفعل فهو لم يتوقف عن التفكير فيك.. كان يحدثني عن طفلته الصغيرة التي ستأتي يوماً إلى الوادي لتشاركه بهجة قطاف العنب. وعلى الرغم من شعوره بالولاء تجاهي لم يستطع أن يترك لي كل شيء، فهذا غير صائب.. أنت لحمه ودمه ووريثته.. لكنه في الوقت ذاته لا يستطيع أن يورثها لمن لا يعرف شيئاً عن العنب والقطاف.. لمن قد

يبيع حصته لعائلة أوكلير.. ما زال فرنسياً ويعرف أن زواج المصلحة هو أنجح زواج.. لهذا حاول التلاعب بنا..

أصغت سيلا إليه بصمت، ولكنها ارتدت عنه:

- لا يمكنك التلاعب بالناس.

احتوى صوته على أثر للسخرية:

- حقاً؟ إذن تنوين الرحيل؟

ارتدت إليه مجدداً:

- طبعاً.. وهل ظننت أن ما قلته لتوك سيغير رأيي؟

مرر أصابعه الطويلة في شعره الكثيف المسترسل:

- كنت أظن هذا.

- حسناً، لم يغير شيئاً.. أنا.. أنا آسفة طبعاً وأفهم الصعوبات التي ستواجهها..

صاح بصوت أجش: «أنت.. أنت لا تفهمين شيئاً!»

- لا أرغب في الانخراط بجدال آخر معك سيدي.

التوى فمه:

- ألا تريدين؟ إذن فهذا من سوء الحظ، لأنني لا أستطيع الوقوف مكتوف اليدين وأنا أراك تدمرين كل ما عمل له والدك ووالده من قبله. أنت فتاة أنانية!

- لم أطلب حصة في الكروم!

وضع يديه على خصره:

- ألم تطلبي؟ إذن لماذا أنت هنا؟

- جئت أرى والدي.. و.. وعلى أي حال، أما قلت بنفسك إنه ما كان لوجودي أي فرق؟..

ارتدّ عنها، وكأنه يخشى إن بقي قربها أن يضربها.. راقبته سيلا متوترة، ثم قالت:

- لماذا لم يستطع ترك نصف الكروم لي بدون ذلك الشرط؟

- وماذا كنت ستفعلين بحصتك؟

- أنا.. لا أدري.

ارتد يواجهها:

- وهل أقول لك؟ كنت ستبيعينها حتى بدون أن تأتي إلى هنا لتريها.

- وكيف تعرف هذا؟

التوت شفتاه:

- الأمر واضح. لقد عرف والدك أنك ابنة أمك.. على أي حال.

- لا تتجرأ على إهانة أمي!

- ولِمَ لا..؟ ألا تعتقدين أنها عاملت أباك ببرود؟

تسارعت أنفاس سيلا: أنت لا تعرف شيئاً عن هذا.

سخر منها مرة أخرى:

- لا أعرف؟ أعرف ما أخبرني به والدك.. كان مريضاً قبل عودته إلى فرنسا.

حدقت سيلا إليه بعدم تصديق:

- ماذا.. ماذا تقول؟

- أما كنت تعلمين؟ ألم تخبرك أمك؟ لقد أصيب والدك بنوبة قلبية قبل سنتين من تركه انكلترا.

- لا!

- هذه هي الحقيقة، فطقس انكلترا لم يساعده فصيفكم رطب وشتاؤكم بارد ولهذا كان عرضة لالتهابات صدرية، التهابات أضعفت عضلات قلبه.

- لا أصدقك.

ولن تصدقه.. لا يمكن أن تسمح أمها لوالدها المريض بالعودة إلى فرنسا بمفرده وهي تعرف أنه سيموت في أي وقت!

أحنى رايون كتفيه، وأكد لها بثبات:

- نعم هذه هي الحقيقة، وأنا آسف إذا كانت صورة أمك قد تحطمت. بصراحة أن رغبات والدك الأخيرة هي التي تهمني.

سعت سيلا إلى أحد الكراسي الخشبية التي تحيط بمائدة الطعام في

المطبخ وجلست عليها بتثاقل.. فساقاها ما عادتا قويتين لتحملاها.. والغثيان الذي أحست به أصبح خفقاناً مؤلماً في صدغيها.. أهذه هي الحقيقة؟ أيمكن إثباتها؟ بكل تأكيد لن يخاطر رايون دوبار بادعاء هذا وهو يعرف أن طبيب والدها قادر على تكذيبه إن لم يكن صادقاً.

رفعت بصرها إليه دون ثبات وخداها الشاحبان وعيناها الغائرتان تظهران الصدمة التي تعانيها:

ـ أنا.. لم أعرف.

رد بلهجة أقل عدوانية، إنما بغير شفقة:

ـ أصدقك.

هزت رأسها بعجز: «كيف.. كيف استطاعت؟»

ـ هذا ما سألته بيني وبين نفسي مراراً.

ضمت راحتا يديها تضغطهما:

ـ أنا بحاجة إلى الوقت لأفكر.

ـ تفكرين في ماذا؟

ـ تعرف بماذا.

هز كتفيه وارتدّ.

ـ لدي ما أقوم به.. فالحياة تستمر. ستعلمينني لاحقاً بقرارك.

أغمضت عينيها لئلا تنظر إليه، ثم فتحتهما مجدداً:

ـ يجب أن أوافق.. أليس كذلك؟

ـ هذا عائد إليك.

نظرت إليه بيأس:

ـ لا.. ليس عائداً لي.. ماذا.. ماذا كنت تعني بزواج المصلحة؟

ـ ما يعنيه بالضبط.. أنا لا أهتم بطفلة، مدموزيل.

احترقت وجنتاها:

ـ أنا لست طفلة، وإلا لما برز الموقف.

ـ ربما ليس في السنوات.. بل بالخبرة..

ـ وأنت.. خبير مسيو؟

لم تعرف ما الذي جعلها تسأل هذا السؤال. نظر إليها بطريقة تبعث الاضطراب ثم قال:

ـ لي من الخبرة بمقدار ما لكل رجل متزوج.

شهقت سيلا: «أنت.. متزوج».

ـ كنت متزوجاً.. ولكن زوجتي توفيت منذ عشر سنوات.

ـ منذ عشر سنوات؟

منذ عشر سنوات أي عندما كانت طفلة..

ـ أنا في الأربعين من عمري مدموزيل. أعترف أنني أصلح أن أكون والدك.. وربما من الأفضل أن تنظري إلى علاقتنا على هذا الأساس.. مع قليل من الحظ قد تصبحين أرملة قبل أن تبلغي عمري.

شهقت أنفاسها بحدة:

ـ لا تقل شيئاً كهذا!

حرك كتفيه بغير اكتراث:

ـ لا؟ ربما.. وربما أعيش حتى السبعين، أو يزيد قليلاً.. من يعرف؟ وسيكون هذا حكماً مؤبداً مدموزيل، أليس كذلك؟ أنا آسف لكنني لست من وضع القانون بل والدك.

* * *

٢ ـ الامتحان الصعب

كانت غرفة سيلا على رأس عدة درجات ملتوية تفضي إلى الطابق العلوي. . لم تكن غرفة كبيرة، فقرب الزاوية كان السقف منحنياً قليلاً، ولكنها غرفة مريحة أدخلت السرور إلى قلبها ما إن وقع بصرها عليها. . خشب الأرض غير المستوية مغطى ببسط صوفية سميكة، وغطاء السرير سميك ومن نسج محلي تقليدي والستائر مرقطة بزهور الليلاك. . أما السرير الحديدي القوائم، وخزانة الملابس الطويلة، وخزانة الأدراج وطاولة الزينة التي هي جميعاً قديمة الطراز قليلاً فتلمع رغم قدمها بسبب الاعتناء المتواصل.

في اليوم التالي على جنازة أبيها، وقفت أمام نافذة غرفتها تنظر إلى الوادي الطويل الممتد. . استطاعت أن ترى النهر والمنازل المستكينة في أسفله، والجبال البعيدة التي لا يذوب الثلج عنها أبداً. . في الصيف حين يخف الثلج يسعى الماعز إلى المراعي الغنية التي كانت مخبأة في الشتاء، ويحمل الهواء صدى أجراسها وثغائها. . لكن الثلج الآن يوشك أن يحط رحاله. . وارتجفت سيلا ترقباً.

كان المطر قد انقطع والصباح بدا منعشاً صافياً ولكن بارداً أيضاً. . كانت سيلا قد ارتدت ملابسها منذ انبزغ الفجر لكنها أخرت لحظة النزول ومواجهة رايون دوبار إذ كانت الأمسية الماضية أشبه بكابوس. . ومع أنها نامت حالما لامس رأسها الوسادة، إلا أنها استيقظت باكراً واستلقت تنظر في الظلام محاولة عدم الشعور بالخوف من المستقبل.

لكن من الصعب أن لا تخاف. ففكرة الزواج برجل لم تتعرف إليه إلا منذ أسبوع فكرة مخيفة خاصة أن الرجل لا يوحي بالثقة. . إنه أكبر منها بكثير، وأكثر خبرة، وضخم وقوي. . رجل بكل ما في الكلمة من معنى. . كيف صدقته حين قال إن زواجهما سيكون زواج مصلحة فقط؟ فما إن يتزوجا حتى تفقد القدرة على فرض إرادتها.

كانت أجراس الكنيسة تدق معلنة الساعة، ونظرت إلياً إلى ساعتها. إنها التاسعة، يجب أن تنزل وتواجه زوج المستقبل. . كتمت أنفاسها شاهقة.

رأت طيفاً نحيلاً يرتدي سروالاً من الجينز وكنزة خضراء سميكة، ينزل الدرج الملتوي وصولاً إلى الردهة المكسوة بألواح الخشب اللماع. وعبقت رائحة القهوة من جهة المطبخ. . فارتفعت معنوياتها حين فكرت أن لودي عادت.

ولكن حين فتحت باب المطبخ لم تجد مدبرة المنزل السمينة منحنية فوق النار، بل كان الموجود فيه رايون دوبار ذو البشرة السمراء المتناقضة بحدة مع لون شعره الباهت الغريب. الواضح أنه كان في الخارج فهو ينضح هالة من الصحة والعافية والنشاط.

قال يحييها:

ـ صباح الخير سيلا. . كنت على وشك أن أحمل إليك القهوة.

أغلقت سيلا الباب واستندت إليه. . تصورت فزعها لو دخل إلى غرفة نومها، وتمكنت أن تقول:

ـ لم يكن هذا ضرورياً.

هز كتفيه وأشار إلى إبريق القهوة على النار.

ـ اخدمي نفسك. . ليس لدينا اليوم خبز طازج. ولكن ربما في الغد. . .

قطعت المطبخ مرتبكة، فتناولت كوباً من خزانة أدوات الطعام وسكبت في فنجانها السائل القوي النكهة. أضافت الحليب والسكر، ووقفت تضم الكوب بين يديها، تراقبه وهو يزيد الحطب إلى النار

المشتعلة. ثم لعقت شفتيها وقالت:

ـ متى تعود لودي؟

مسح يديه في سرواله واستقام:

ـ لن تعود لودي.

اتسعت عيناها: «لن.. لن تعود؟»

ـ لا.. لأنها بقيت في المنزل من أجل والدك.. أما الآن فسيكون هناك ربة منزل جديدة.. لذا رحلت.

ـ لكن.. هذا غير ضروري.

ـ غير ضروري؟

فتحت يديها لتعبّر:

ـ لا.. من.. من سيقوم بالطهي هنا، والتنظيف، والعناية بالحيوانات؟

صمتت، ثم لمّا رأت النظرة الساخرة في عينيه تابعت:

ـ ليس أنا؟

ـ لماذا ليس أنت؟ ماذا تنوين أن تفعلي طوال اليوم.

ـ أنا.. لست مدبرة منزل.

ـ ماذا أنت إذن؟ أو بالأحرى ماذا تنوين أن تكوني؟

عبست سيلا: «أنا.. أمينة مكتبة».

ـ لا مكاتب في بلياز.

ـ أستطيع القيام بعمل آخر.. عمل مكتبي.

ـ لمن؟ أعرف.. يمكنك تولي مسؤولية الحسابات التي كنت أتولاها حتى الآن.

أحنت رأسها:

ـ أنت لا تفهم.

ـ بل على العكس سيلا، أنت التي لا تفهمين.

فتش في جيبه وأخرج علبة سيكار رفيعة. وضع سيكاراً بين أسنانه ثم أشعله بقطعة حطب صغيرة أخذها من الموقد.

أردف يقول:

ـ فلأقل لك شيئاً.. أمامك أمور كثيرة تتعلمينها.. أعرف أن أباك أراك الكروم وعرفك إلى العاملين.. مع ذلك، فأنت لا تعرفين شيئاً عن حياتنا.. كرومنا صغيرة.. ونحن ننتج أقل من مئتي طن من العنب سنوياً.. لكن نحب أن نعتقد أن إنتاجنا وفير، وفير جداً.. حتى وإن كنا غير معروفين في الأسواق التجارية. لذا نحن لا نربح مالاً كثيراً.. ولا يمكن أن نقارن إنتاجنا بإنتاج المزارع الكبيرة في بوردو مثلاً، وبورغاندي. نتيجة هذا حياتنا بسيطة، لذا لا نبذر المال على مدبرة منزل حين تكون سيدة المنزل قادرة على إدارة منزلها.. هل أنا واضح في كلامي؟

ـ لكنني لم.. ولن أعرف كيف..

ـ ستتعلمين، سأستخدم فتاة صغيرة من القرية لمساعدتك في الأعمال الصعبة، ولكنك ستجدين أنك ستسرين عندما ترين قدرتك على تدبير أمورك بمفردك.

أنهت سيلا قهوتها ووضعت الكوب بقوة على لوح المغسلة.. وقالت بمرارة:

ـ لقد فكرت في كل شيء.. أليس كذلك؟ متى قلت للودي إننا لا نحتاج إليها؟ حالما مات أبي؟ هل كنت متأكداً من موافقتي على خططك الشائنة؟

رد عليها بصوت بارد:

ـ إنها ليست خططي.. وأقترح عليك أن تتوقفي عن التأسي على نفسك واحمدي الله على حظك السعيد.

ـ وهل الحظ السعيد في الزواج بك مسيو؟

قال ببرود شديد: «احذري يا صغيرة.. ما إن نصبح زوجاً وزوجة حتى يصبح لي عليك حقوق معينة.. فلا تدفعيني لاستخدامها».

توهجت وجنتاها.

ـ لكنك قلت..

- هناك حقوق أخرى غير الحقوق الزوجية.. ولكن هذا الكلام لن يوصلنا إلى نتيجة.. أقترح التوقف عن الشجار والبدء بقبول واقع أن هناك ضوابط محددة لكلينا.

كادت تجهش بكاء فهي تعرف على من ستكون الضوابط الكبرى، هزت رأسها:

- ضوابط؟ حسناً.. حسناً.. أعتقد أن لا خيار أمامي ما دمت محتجزة هنا.

قال بصوت ينذر بالخطر: «كيف ستكونين محتجزة؟»

فتحت يديها، فكشفت بطريقة لا إرادية عن تشابه مع والدها:

- وماذا أمامي من حل آخر؟ لا باصات، لا قطار.. ولا أستطيع أن أسير إلى أقرب بلدة.

- أنت لا تجيدين قيادة السيارة؟ لا؟ إذن سأعلمك. ثمة سيارتان هنا.. الستايشن السوداء واللاندروفر.. وأنت حرة في استخدام السيارة التي تريدين إنما هذا بالتأكيد بعد تعلم القيادة. بلدة «آنسيانس» لا تبعد أكثر من عشرين كيلو متراً. فيها محلات، ودار سينما، ومكتبة أيضاً إن احتجت إليها.

قال آخر كلماته بسخرية، لكن سيلا اختارت تجاهلها.

- شكراً لك.

أحنى رأسه: هذا لا شيء.. الآن أقترح أن تساعدي نفسك على تحضير ما تأكلينه.. فالتعب سرعان ما يأتي بعد سوء التغذية.

هزت رأسها: أنا غير جائعة.

- ستجوعين قبل نهاية الصباح.. وأقترح أن تمضي الوقت باستكشاف منزلك.. فالأب باتريك سينضم إلينا للغداء.. وربما عليك أن تفكري في ما ستقدمينه له.

نظرت إليه برعب:

- أنت.. تتوقع مني تقديم وجبة طعام؟

اتجه رايون إلى باب المطبخ والتقط معطفاً جلدياً أسود كان معلقاً

على ظهر كرسي:

- يجب أن أذهب إلى «بيلياز» لرؤية سيمون روكير.. وأتوقع أن أعود بعد الواحدة بقليل. ستجدين مخزن المؤن مليئاً، وهناك ثلاجة في غرفة المؤن.. كانت لودي مدبرة منزل حريصة ولا أظن أن أملك سيخيب.

خطت سيلا خطوة نحوه:

- لكن.. أعني.. أنا لم يسبق أن حضرت وجبة طعام.

فتح رايون الباب، ووقف ينظر إليها نظرة ملؤها التسلية:

- لكل شيء مرة أولى يا صغيرة. آديو.. وحظاً سعيداً!

وقفت سيلا بلا حراك وهو يقفل الباب وراءه. بعد لحظات سمعت محرك «الستايشن» يدور، فهرعت إلى النافذة.. لكنه لم يلتفت لينظر إليها بل انطلق بالسيارة متوجهاً إلى القرية.

هي فتاة أمضت عمرها بعيداً عن تدبير المنزل وهذا يعني أن أمامها الكثير مما عليها تعلمه. ولكن من أين تبدأ؟

تذكرت أن أحدهم قال لها مرة إن أفضل وسيلة لتنظيف منزل، هي البدء من الأعلى إلى الأسفل.. نظرت بريبة إلى الباب المفضي إلى الردهة.. افترضت أن غرف النوم هي المكان الذي يجب تبدأ به.. ولكن أين هي غرفة نوم رايون دوبار، وهل من المتوقع أن تنظف غرفته؟

هزت رأسها وكأنما لتنفض عنه الارتباك.. سارت بعزم إلى الردهة، ثم أبرز لها أول منبسط درج حيث تقع غرفة نومها، أن هناك عدداً كبيراً من الأبواب لم تتوقعها عيناها.. ولكن بعد اكتشاف خزائن مكانس، وأبواب تهوئة، وتجديد معرفتها بالحمام العتيق الطراز اكتشفت أن هناك أربعة غرف نوم فقط لتنظفها.. وبما أنها لم تكن مستعدة نفسياً لمواجهة غرفة والدها أقفلت بابها. عدا عن غرفتها كان هناك غرفتان، إحداهما مغطاة بالملاءات لمنع الغبار عنها والأخرى غرفة رايون دوبار.

ترددت قبل الدخول إلى غرفته، ثم أبعدت عنها الشعور بالقرف.. على أي حال، ما إن يتزوجا حتى يتوجب عليها الاعتياد على الاهتمام بثيابه وغسل شراشفه وترتيب سريره، ولكنها رغم هذا شعرت بأنها

متطفلة. علقت روب الحمام على المشجب خلف الباب. ثم رتبت الوسائد المتلبدة، ورتبت غطاء السرير.. لم يكن هناك بيجاما..

بعدما رتبت السرير ووضعت الغطاء عليه، نظرت حولها بفضول متردد.. في هذه الغرفة ما يدل على شخصية الرجل. ثمة خزانة كتب قرب السرير كشفت عن مختارات في زراعة كروم العنب، وأخرى في الاقتصاد، وعلم طبقات الأرض وبضع قصص قد ترغب سيلا في قراءتها، وثمة خزانة صغيرة قرب السرير فيها مصباح وساعة منبّه ولكنها احترمت خصوصياته، ولم تفتش في درجيها أو في الخزائن.

أدركت أنها تضيع وقتها فتركت غرفته بسرعة واتجهت إلى غرفتها لترتبها ثم عادت إلى الطابق السفلي.

سمعت مواء هر ثم دخل الهر الضخم الذي كان يحتل المقعد قرب النار إلى يوم رحيل لودي، والذي افترضت سيلا أنه ملكه.. ولكن الهر دخل إلى المطبخ كأنه هو الذي يملك المكان.. تجاهل سيلا كلياً ثم عاد للاستيلاء على مركزه فوق المقعد الخشبي.. مع أنها انزعجت من معاملته لها، إلا أنها كانت مسرورة بصحبته وأحست بشيء من الاطمئنان لوجوده هناك.

انشغلت به أكثر مما يلزم فضاع بعض الوقت فلما نظرت إلى الساعة على رف الموقد وجدت أنها العاشرة والنصف.. كم يحتاج اللحم من وقت لينضج؟ وماذا ستقدم لهما على الغداء؟

فيما كانت تدفع الصحون القذرة إلى المغسلة، عرفت أن رايون تناول فطوره هذا الصباح. فعلى سكينه رائحة المربى اللذيذة، وهناك قطعة سميكة من الخبز مقتطعة من الرغيف الذي ما يزال على الطاولة.. بعد نظرة سريعة على ما حولها رأت علبة لحفظ الخبز فوضعت ما تبقى من الرغيف فيها، وأغلقت غطاء علبة الزبدة. وفيما كانت تقوم بذلك تململت معدتها، وتنهدت.. يجب أن تأكل شيئاً.. لكن الوقت ثمين، فقاومت جوعها.

كشفت الثلاجة عن كمية ضخمة ومتنوعة من اللحم والخضار.

الواضح أن لودي جمدت مخزوناً من الخضار للشتاء المقبل.. هذا عدا المربى والمكسرات والفاكهة المحفوظة.. بدا من المخيف لسيلا أن تتصور نفسها تتدبر أمور المنزل بهذه الكفاءة وأحست أنها متأكدة من فشلها.

تخلت عن فكرة تحضير طعام تقليدي كما كانت تفعل لودي، فاستخرجت بضع شرائح من اللحم من الثلاجة، ومرطبان من المشمش المحفوظ في الماء والسكر عن الرف، بما أن اللحم بحاجة إلى وقت ليذوب عنه الثلج وضعته على طبق على رف المغسلة ثم أخذت تفتش في خزائن المطبخ..

بعد غسيل الصحون وتجفيفها وتنظيف المائدة للمرة الأولى منذ رحيل لودي، بدأت سيلا تحس بأنها تتقدم.. هناك إضافة إلى المطبخ الضخم ثلاث غرف في الطابق السفلي.. ألقت نظرة عليها.. ثمة هناك غرفة طعام نادراً ما تستخدم وقاعة جلوس حسبتها سيلا مخيفة بمقاعدها المستقيمة الظهر وأغطيتها الملونة والمكتبة التي يستخدمها والدها ورايون دوبار.

كانت المكتبة كما هو واضح أفضل غرفة في المنزل.. مقاعدها الجلدية الرثة شاهد على كثرة الاستخدام.. كانت الأوراق منثورة على المكتب العريض وثمة آلة كاتبة موضوعة قرب المكتب كانت يوماً نموذجاً متطوراً.. وضعت سيلا فيها ورقة فارغة وضغطت الأزرار، فأدهشتها النتيجة.

جلست في المقعد وراء المكتب، تدرس الأوراق الخاصة بالمزرعة.. الواضح أن مزرعة داموراي تتحسن، وحسابات السنوات الخمس المدورة تُظهر تصاعداً مطرداً في المدخول. أحست بشفقة شديدة على أبيها.. لقد مات بعدما بدأت تميل دفة الأعمال إلى الأحسن. ولكن إلى جانب حسابات مزرعة داموراي، كان هناك كشف عن مزرعة أوكلير التي تشير أرباحهم إلى تحسن ملحوظ أيضاً، ويبدو أن رايون دوبار لم يبالغ عندما تكلم عن منافسي أبيها بمثل هذه الشراسة.

ذكرها فراغ معدتها بأن الوقت حان لتحضير الوجبة.

ولكنها تلقت صدمة حين عادت إلى المطبخ.. كان الهر الضخم يلعق فوق رف المغسلة، والطبق الذي وضعت فيه اللحم فارغ.

وذعرت سيلا وصاحت بغضب: أوه أيها الهر! رفعت المخلوق لترميه على الأرض: أوه ماذا سأفعل؟

علمت أن لا وقت لديها للتفكير ومع ذلك عادت إلى غرفة المخزن فأخرجت ثلاث شرائح أخرى من الثلاجة التصقت برودتها بأصابعها ودون التوقف للتفكير بصلاحية ما ستفعل وضعتها في الماء الحار لتذيبها بسرعة.. في الوقت الذي جاء فيه الأب باتريك، كان اللحم يغلي على النار والبطاطا تقلى في المقلاة.

دخل القس العجوز مبتسماً بحرارة.. الواضح أنه متأثر بنشاطها.

ـ أرى أنك ستصبحين مدبرة منزل ماهرة طفلتي.

وتنشق الهواء برضى:

ـ لقد دعاني رايون إلى الغداء.. وأرجو ألا يزعجك هذا.

كانت وجنتاها متوردتين من حرارة النار ولكنها كانت تحس بالغثيان من الداخل.. إذ لم تأكل شيئاً حتى الآن، وبدأ الإرهاق يظهر عليها. ولكنها قالت:

ـ ألن تجلس.. أبتاه؟ هل أقدم لك شيئاً؟ قهوة أو شاي؟

ـ لا.. لا شيء الآن يا طفلتي.

نزع قبعته وجلس بارتياح ظاهر، ثم ربت على صدره:

ـ يا الله! الطريق صعوداً من القرية يزداد ارتفاعاً على ما أظن.

قالت بدهشة: «وهل جئت سيراً على قدميك؟»

ـ بالتأكيد.. فالتمرين يفيدني.. مع أنني أعترف أنني بعد وجبة طعام تعدها لودي أصبح غير قادر على العودة إلى القرية سيراً على قدمي، علماً أن الطريق هي نزولاً.

وضحك، فعادت سيلا إلى المطبخ. كانت كلماته مؤسفة في هذا الظرف، لكن ما كان ليعلم هذا. على أي حال، شرائح اللحم وسلطة الطماطم، والبطاطا المقلية، يتبعها المشمش المحفوظ والآيس الكريم،

ليست وجبة مقتصدة.. ربما كان يجب أن تفتح علبة حساء. هزت كتفيها.. في يوم آخر.. على رايون أن يؤمن أنه محظوظ لحصوله على أية وجبة مهما كانت.

هدرت «الستايشن» التي ولجت إلى الفناء بعد خمس دقائق.

دخل رايون فحمل معه أنفاس الهواء البارد القارس. في غيبته كانت قد نسيت سيطرة وجوده الغامر، وقسوة عينيه الشبيهتين بعيني القط.. حيا القسيس بحرارة وتبادل نظرة مع سيلا.. ثم انحنى يلمس الهر الذي ترك مقعده ليقف بلطف ومحبة بين ساقيه.

ـ هاي توماس! لقد عدت إذن! هل كنت تسلي السيدة برفقتك؟

رفعت سيلا البطاطا من المقلاة بيدين مرتجفتين.. كانت على وشك أن تخبره بطبيعة التسلية التي وفرها لها المخلوق المتوحش ولكن مثل هذا القول قد يحرج القسيس الذي لا خلاف لها معه..

بدت شرائح اللحم رائعة حين قدمتها مع البقدونس المفروم. فعلق رايون عليها مطرياً. بعد لحظة تردد قررت تقديم الوجبة في المطبخ، وكان عملاً صائباً.. ولولا شعورها بالسقم لرضيت كل الرضا عن عملها الصباحي.

قال القسيس معلقاً: «آه.. إنه جيد».

ابتسم رايون وجلس على رأس المائدة ثم تمتم بمرح: «يا لك من ذوّاقة يا أبتي».

راقبهما القسيس ثم قال بلهجة المتوقع شيئاً:

ـ وهل هذه مناسبة لاحتفال ما؟

سعت عينا رايون إلى عيني سيلا، فأبعدت بصرها عنه.

ـ إنها فعلاً مناسبة خاصة أبتاه.. أنا وسيلا سنتزوج.. في أسرع وقت ممكن.. أليس كذلك سيلا؟

إنه يتحداها.. هذه لحظة مواجهة الحقيقة، ولم تكن مستعدة لهذا حتى الآن.

ـ أنا.. أجل.. أجل.. أعتقد هذا.

ابتسم الأب العجوز.

- لا يمكن أن أكون أسعد حالاً.. أتمنى لكما السعادة ولديَّ.. ومستقبلاً هانئاً.

ربت على كتف رايون، وقال لسيلا إن والدها كان ليشعر بالسعادة لو بقي حياً لرؤية هذا اليوم.. كان رايون بالنسبة له ابناً.. وكانت أعز أمنياته أن يتلاقى أعزّ الناس على قلبه في رباط الزواج.

بعد الرضى، انصبوا على وجبة الطعام فقدمت سيلا الطبق الأول للقسيس ثم إلى رايون وأخيراً إلى نفسها.. ولم يعلق رايون على احتفاظ سيلا لنفسها بقطعة لحم صغيرة ونصف حبة طماطم.. لكن حين قطعت اللحم وجدت ويا للهول أنه من الداخل ما يزال قاسياً متجمداً على الرغم من ظاهره المحمر ورائحته الشهية.

رفعت رأسها مذعورة فوجدت القسيس ورايون يأكلان بصمت.. غير مرتبكين بسبب قسوة اللحم.. لكن معدتها تقلصت.. ماذا يظنان بها؟ ألن يقول أحدهما شيئاً؟ إنهما يعرفان بلا شك أنها لم تذب اللحم قبل طهوه، وسيعتقدان أنها بلهاء كاملة!

دفعت طبقها جانباً بانتظار أن يتكلم أحدهما ولكنهما لم يقولا شيئاً.. فجأة أحست بغضب شديد، إنها لا تريد شفقة أحد.

سحبت نفساً عميقاً، وصاحت:

- لا تأكلا اللحم! إنه فظيع! ما زال نيئاً! لقد أكل الهر اللحم الذي أذبته ولم يكن لدي وقت لأذيب غيره.

رفع الأب باتريك رأسه بطريقة محرجة.. ونظر رايون إليها.

- لا تكوني سخيفة سيلا.. أنا أفضل الشرائح نصف نيئة.

- هناك فرق بين نيئة ونصف نيئة!

قست عيناه قليلاً:

- أقول أن لا بأس به.

- حسناً.. أنا لن آكله.

دفعت كرسيها إلى الخلف ووقفت.. فسألها رايون:

- إلى أين تذهبين؟

لكنها لم ترد بل هزت رأسها وسارت مترنحة نحو الباب.. وصلت إلى غرفتها وأقفلت الباب وهناك جلست على السرير والدموع تحرق مقلتيها.

إن وجبتها الأولى كارثة! لن تكون أبداً كفؤة مثل لودي.

انفتح عليها الباب فرفعت رأسها مذهولة فرأت رايون دوبار يسد الباب.. ثم دنا منها ونظر إليها ببرود، وسأل بحدة:

- ماذا تظنين أنك تفعلين؟ أمن عادتك ترك ضيوفك وهم يتناولون الطعام؟

عضت شفتها لتوقف ارتجافها:

- إنه ليس ضيفي.. بل ضيفك أنت.

- إنه ضيفنا. توقفي عن هذا التصرف الطفولي.. حسناً.. اللحم غير مطهو جيد! ولكن لا أحد يتوقع منك تقديم وجبة متقنة من المحاولة الأولى!

صاحت بسخرية ظاهرة:

- أوه.. شكراً لك.. طمأنت قلبي!

دس يديه في جيبي سرواله.

- لقد تسامحت مع عدم نضوجك بعد، أيتها القطة الصغيرة.. فكوني شاكرة.

أدارت رأسها بعيداً تكبح دموعها:

- لا أذكر أنني دعوتك لدخول غرفتي مسيو.. ألا يفترض بك قرع الباب قبل دخول مخدع سيدة؟

كانت شهقته نصفها غضب ونصفها مرح.. قال بهدوء:

- أنت مصممة على أن تتحديني.. أليس كذلك يا صغيرة! حسناً.. لديك خمس دقائق لترتبي نفسك.. ولتنضمي إلى الأب الطيب ولي لتناول الحلوى.. هل كلامي واضح؟

ارتدت تواجهه معترضة:

ـ لا أريد شيئاً آخر.

تفرست عيناه فيها بطريقة سرّعت الدم في عروقها:

ـ ربما لا.. أنت لم تتناولي الفطور، أليس كذلك؟ لون وجهك مقبول الآن، ولكن الشحوب بارز تحته.. أنت بحاجة إلى الطعام يا صغيرة، ربما ليس إلى شريحة لحم، ولكن بعض الحساء سيفيدك.. هه؟

ـ لم أصنع الحساء.

ـ هناك علب..

توقف أمام الباب وأعاد النظر إليها:

ـ هل أنت بخير الآن؟

ترددت سيلا ثم هزت رأسها موافقة. وكانت قد أصبحت فعلاً بخير.. صحيح أنه لم يتعاطف معها، ولكن كلماته الهادئة أعادت إليها قليلاً من ثقتها بنفسها. وكم أدهشتها هذه المعلومة.

***

تزوج رايون دوبار وسيلا بعد ثلاثة أسابيع في كنيسة صغيرة في قرية بيلياز.. أما المراسم فأجراها الأب باتريك.. وبما أنه ليس لدى سيلا أو رايون أقرباء تمّت المراسم بهدوء وبساطة.

في الأسابيع التي سبقت الزفاف شعرت سيلا بأنها تعيش في فراغ.. فقد انقلبت حياتها رأساً على عقب وأصبحت غير حقيقية بحيث وجدت صعوبة في استيعاب ما يجري حولها.. وعلى الأخص علاقتها مع الزوج العتيد.

كان هذا الوقت من السنة الذي يلي قطاف العنب، الذي رُحّل إلى حيث سيتم تصنيعه أو بيعه للاستخدام المنزلي.. والوقت وحده سيحدد مدى نجاح القطاف مقارنة مع مردود السنوات السابقة.. ونتيجة ذلك أصبح وجود رايون شبه دائم في المنزل، وهذا ما جعلها متوترة فوجوده الدائم معها يقلقها.

اصطحبها كما فعل والدها من ذي قبل إلى الكروم، فسارت معه بين الأغراس الكثيرة العدد الفارغة من العنب الآن.. والتقت مجدداً بالعجوز ترايوت الذي عمل عند والدها، وفيما كانت تمر بين أعمدة أغراس الكرمة المنتظمة ارتجفت.

خلال هذه الجولات التفقدية كادت سيلا تنسى ما ستؤول إليه علاقتهما.. ولكن حين كان أحد العاملين يهنىء رايون على حظه الموفق استولى عليها الخوف. في الليالي الطوال حين يكون النوم مراوغاً، كانت تستلقي وتتخيل بوجل ما هي مقدمة عليه.. ماذا تعرف عن هذا الرجل الذي سيصبح زوجها؟ إن معرفتها بأن والدها كان يهتم به ويعتمد عليه لا يعني لها شيئاً.. فالعلاقة بين رجلين تختلف كثيراً عن العلاقة بين رجل وزوجته.. السلطة التي سيمنحها هذا الزواج لرايون عليها لا يمكن الاستهانة بها.

كان رفيقاها الوحيدان في الأسابيع التي سبقت الزواج القسيس وطونيا، الفتاة التي جلبها رايون من القرية لمساعدتها. طونيا تكبر سيلا بسنة، ولكنها تعلقت بسيلا وقد فهمت بطريقة ما مخاوف سيلا من هذا الزواج، ولكن أسباب تفهمها تختلف عن أسباب سيلا.

كان رايون دوبار بالنسبة لطونيا رجل رجل.. وهذا رأي كل نساء القرية فيه، أما سيلا فليست أكثر من طفلة.

افترضت سيلا أنها مقارنة بطونيا لا تزال طفلة.. فمعرفتها بالجنس الآخر محصورة بلقاءات محدودة في احتفالات نادي الشباب الاجتماعي وما شابه من مناسبات.. لم يكن لها قطُّ صديق دائم.. وكانت تفضل الانطواء على نفسها على رفقة بعض الشبان الذين يأخذون على عاتقهم محاولة التودد إليها.

من ناحية أخرى، كان قد مر بحياة طونيا حبيبان دائمان هذا عدا الصبيان الذين لا تعرف عددهم بالتحديد.. وجدت سذاجة سيلا مؤثرة فحاولت بطريقتها أن تطمئنها.. من وقت لآخر كانت سيلا تلاحظ أن عيني طونيا تستقران بشيء من الحسد على كتفي سيد المنزل العريضتين

وعلى وجهه النحيل.. وأدركت أن رجلاً مثل رايون لن يجد صعوبة في إيجاد امرأة ترضي غروره. وهذه المعلومة أثارت اضطرابها بطريقة ما، مع أنها لا تعرف لماذا.. فلا يهمها معرفة عدد النساء اللاتي مررن في حياته..

بعد مراسم الزفاف، عاد رايون وسيلا والقسيس إلى المنزل.

كانت سيلا سعيدة بالعودة لتخلع فستان العرس الأبيض الذي أصرّت طونيا على أن تعيرها إياه.. وبما أنه لم يكن لديها الوقت، أو النية لشراء ثوب عرس، فقد افترضت أن عليها أن تشعر بالامتنان تجاه الفتاة التي وفرت لها ما هو مناسب لترتديه.

ارتدى رايون بزة كحلية لاقت بالجسد القوي، بزة لم يسبق أن شاهدتها سيلا من قبل.. لونها القاتم زاد من بريق شعره المستقيم.. أحست بعودة المقت الشديد الذي شعرت به في المرة الأولى على لقائهما.. كان رجلاً صارخ الرجولة واثقاً كثيراً من نفسه، متعجرفاً، وواثقاً منها.. ولمَ لا؟ لقد نفذت ما يريده..

في غرفتها خلعت الفستان الذي كرهته، وفتشت عن سروال الجينز ولكنها لم تجده حيث تركته على الكرسي.. ثم فتحت أدراج الخزانة بنفاد صبر، فرأت أن ملابسها الأخرى مختفية أيضاً.. عبست بحيرة.. كانت طونيا في المنزل عندما توجها إلى الكنيسة، فهل أخذت هذه الأشياء؟ ولمَ تأخذها؟ ماذا تفيدها؟ لا.. لن تفعل شيئاً كهذا، وهي متأكدة أن الفتاة أمينة.. إذن أين هي الثياب؟

سرعان ما خطرت على بالها فكرة صدمتها وأرسلتها بسرعة من الممر إلى غرفة رايون.. كانت تسمع صوته مع القسيس في الأسفل، لذا لم تحس بالاضطراب حين فتحت الباب ودخلت.. فتحت درجاً في طاولة زينته فرأت فقط جواربه وملابسه الداخلية، فأغلقته بسرعة ثم فتحت درجاً آخر فبانت قمصانه وكنزاته الصوفية.. لكن في المحاولة الثالثة وجدت ما كانت تبحث عنه.. طبقة من الملابس الحريرية كانت تخفي تحتها قميص نوم وبعض العطور.

وقفت تحدّق إلى محتويات الدرج مذعورة ثم شعرت بغثيان رهيب يملأ معدتها.. لا ريب أن طونيا نقلت كل أغراضها عندما كانت في الكنيسة.. لكن بناء على تعليمات من؟

ـ ماذا لدينا هنا؟

ارتدت سيلا بذعر لدى سماعها صوت رايون غير المتوقع.. فجأة تذكرت أن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم:

ـ أنا.. أنا.. كيف تجرؤ على نقل متاعي إلى غرفتك؟

لم تتغير تعابير وجه رايون، بل نظر إلى الدرج المفتوح وقال:

ـ لا بد أن طونيا فعلت هذا.

ـ أجل.. أجل.. أعرف.. لكن بناء على طلب من؟

ـ أؤكد لك أنه ليس بناء على طلبي.

أعادت سيلا النظر إلى الدرج. وفيما كانت تغلقه رأت صورتها في المرآة.. فجأة أدركت أنها تقف أمامه بثيابها الداخلية فعقدت ذراعيها حول صدرها وتحركت عن غير ارتياح..

قالت متلعثمة: «أريد بنطلون الجينز و.. القميص».

دخل إلى الغرفة يفك أزرار سترته: خذيهما.

ـ هل أمهلتني خمس دقائق..

ارتدّ إليها مقاطعاً:

ـ حباً بالله سيلا.. اكبري! نحن متزوجان، ألا تذكرين؟ أم لعلك نسين بسرعة؟

ـ لا.. لم أنس.. وأذكر جيداً أنك قلت إن الزواج سيكون زواج مصلحة فقط..

نظر إليها بعينين مليئتين بالكراهية:

ـ وهو كذلك! ماذا تتوقعين مني أن أفعل؟ هذه غرفتي، ولي ملء الحق بها.. ولن يغير الموقف بيننا قيام فتاة غبية بنقل ملابسك إلى هنا. وما من شك أنها توقعت أن يسعدك هذا.. أما عدم رضاك عنه فأمر تناقشينه معها لا معي!

نظرت سيلا إليه بسخط وظلت تحمي جسمها بذراعيها:

ـ كيف.. كيف لي أن أبدّل ملابسي وأنت هنا؟

توجه نحو الباب ثم توقف:

ـ سأمهلك خمس دقائق لتجدي ما تبحثين عنه، ثم سأدخل لأغير ملابسي.. مفهوم؟

هزت رأسها بصمت، فأقفل الباب خلفه.. ما إن خرج حتى أسرعت تبحث عن سروالها الذي وجدته أخيراً في الخزانة، وارتدته.. كانت تزرر القميص الأحمر القاتم عندما عاد رايون.. نظر إلى مظهرها بانتقاد ثم تجاهلها وشرع بفك أزرار قميصه.

تمتمت عن الباب:

ـ سأعيد أغراضي إلى غرفتي فيما بعد.

هز كتفيه: «كما ترغبين».

في غرفتها فكرت قليلاً في مظهرها.. ليس لديها النية في ارتداء ثياب نسائية مبهرجة من أجل رايون دوبار، مهما سيكون ظن الأب باتريك بها. لكنها لم تكن تدرك أنها في ملابسها العادية كانت تملك فتنة الشباب وجاذبيتهم.

في الطابق السفلي، كان الأب العجوز جالساً في كرسي هزاز يهزه أمام النار الملتهبة.. التفت حالما دخلت إلى الغرفة ويبدو أن ما شاهده أسعده، لأنه ابتسم برضى وقال:

ـ لن أطيل المكوث مدام فلست عديم الذوق.

ـ أوه.. لكنك.. باق على العشاء. ألن تبقى؟

هز القسيس رأسه:

ـ سأقبل فنجان قهوة، ثم أتمنى لكما السعادة، وأذهب..

جمّد الرعب ساقيها فكادت لا تستطيع الحراك في الغرفة.. بعد نصف ساعة ستكون بمفردها مع الرجل الذي أصبح الآن زوجها.. ما أغباها! كيف تصورت أنها قادرة على العيش هكذا.

بدأت تقول بيأس: «أبتاه..».

وانفتح الباب وراءها ودخل رايون مرتدياً سروالاً أخضر اللون وكنزة بلون العاج. بدا أضخم وأقوى مما مضى فذعرت من مجرد فكرة إقدامها على صده إذ لن تتسنى لها الفرصة والقانون في صفه.

كأنما قسمات وجهها الشاحبة عكست أفكارها إذ ضاقت عينا رايون وقال بصوت أجش:

ـ أحضري الفناجين.. سأعد القهوة بنفسي.

استمتع القسيس بعد ذلك باحتساء القهوة ثم تمنى لهما السعادة وقال وهو يمسك بيديهما معاً:

ـ فلتبتسم السماء لكما ولديّ... احمدي الله على شبابك وصحتك الجيدة وليباركك الله بالعديد من الأبناء والبنات ليشاركاكما حظكما الطيب.

أخفت سيلا حرجها وقال رايون: «شكراً أبتاه».

وارتدّ يفتح الباب الخارجي فعصفت ريح باردة اخترقت دفء المطبخ.. قال وهو يأخذ معطفه:

ـ سأقلّك أبتاه.. فشدة الظلام ستمنعك من رؤية طريقك بوضوح، أضف إلى هذا أن الطريق قد تكون منزلقة.

احتج القسيس إنما ليس بشدة، ورفض رايون احتجاجه بأدب، فقال القسيس:

ـ حسناً شكراً لك يا ولدي.

ورفع ذراعه لسيلا:

ـ لن أؤخره كثيراً يا صغيرة..

وضحك خارجاً إلى الظلام.

بعد ابتعاد السيارة ظلت واقفة قرب النار المشتعلة.. ثم لملمت شجاعتها.. على الحياة أن تستمر كالعادة.. وتغيير أو عدم تغيير حالهما أمر عائد إليها.. الساعة الآن السادسة، وفي السابعة يتوقع رايون عشاءه.. فوق الطباخ كان هناك يخنة الخضار التي طهتها بالأمس، كانت تنوي تقديمها مع الخبز الذي جلبته طونيا من مخبز القرية.. بعدها ستقدم

فاكهة وجبناً.. وهذه وجبة بسيطة.

لم يتغير شيء.. ولن يكون الليل احتفال خاص.. علقت غصة في حلقها.. إنه يوم عرسها! ليلة زفافها! هل مرت فتاة بأغرب من هذا الزفاف؟

أعدت المائدة، وكانت اليخنة تغلي على النار حين عادت السيارة. سرعان ما تشنجت أعصابها وأطبقت الغصة على حنجرتها مجدداً.. دخل وهو يصفر.. خلع معطفه الجلدي ثم تقدم إلى المغسلة يغسل يديه. عندما كان يجففهما بالمنشفة تنسم الهواء بإعجاب:

ـ همم.. شيء ما رائحته لذيذة.. وخبز طازج كذلك؟ هل جلبته طونيا؟

ـ أجل.

نظر إليها بسبب ردها المقتضب:

ـ ما الأمر؟ لماذا تبدين مستاءة؟ هل ارتكبت غلطة ما؟

هزت رأسها بسرعة: «بالتأكيد لم ترتكب».

ـ قلت لك أن لا شأن لي في وضع ملابسك في غرفتي.. ألا تصدقينني؟

هزت رأسها إيجاباً ثم راحت تحرك اليخنة بقلق:

ـ أجلس، لن يتأخر الطعام.

مرت دقيقة صمت مطبق.. لكن عندما التفتت لم تجده قد تحرك قيد أنملة.. شدت شفتيها بقوة وأعادت اهتمامها إلى وعاء الطبخ متوترة.. هي التي بدأت هذا وعليها أن تنهيه بسرعة.

أخيراً قالت:

ـ لا.. لم يتغير شيء.. صحيح؟

رد بقسوة: «لا لم يتغير شيء.. لا تثيري فيَّ كلمات على ورق دافعاً لأتصرف بطريقة مختلفة، ولا غياب هذه الكلمات يمنعني إن كنت راغباً».

التفتت إليه: «لكن كان بإمكاني تغيير رأيي».

رفع عينيه نحو السماء ثم سحب نفساً عميقاً..

ـ أنت مصرة على استخلاص آخر ذرة من التراجيديا في هذا الموقف؟ ألا تقبلين بوعدي؟

لوت يديها بارتجاف:

ـ أنا.. لست مثلك سيدي.. أجد هذا كله غريباً.

وضع سيكاراً رفيعاً بين أسنانه، ونظر إليها وأصابعه على شفتيه:

ـ وأنا كذلك لست معتاداً على هذا.. وأعتقد أن من الأفضل أن تعتادي على مناداتي رايون.. على أي حال لا تخافي.. لا نية عندي في غزو غرفة نومك لأنفذ نواياي الشريرة.. أدرك أنك تجدين هذا صعب التصديق ولكنني لا أنجذب إلى الفتيات الصغيرات، صغيرتي.

توردت سيلا: «أيجب أن تكون عدوانياً؟»

رفع يديه ساخطاً:

ـ وما هو العدواني في قول الحقيقة؟ ظننت أن كلامي سيطمئنك.

عادت مجدداً إلى اليخنة:

ـ أنت صريح «مسيو» سأحاول أن أتذكر هذا.

أمال رأسه جانباً:

ـ والاسم؟ هل ستتذكرين هذا أيضاً؟ أم ترغبين أن تتصورك طونيا تناديني مسيو في الفراش؟

ـ طونيا؟

ـ طبعاً.. تعلمين أنك حين ستعيدين أغراضك إلى غرفتك، ستدرك أن بيننا خطباً ما.. أتريدين أن تخبر القرية أنك عدا رفضك مشاركتي الفراش تصرين على مناداتي بالمسيو؟

أطرقت تنظر إلى قدميها:

ـ وهل ستفعل.. هل ستخبر.. القرية.. أعني؟

ـ سيستغربون الأمر مدة تسعة أيام.. لا أكثر.

لم تكن سيلا واثقة من هذا.. فبعد ذهابها مرتين في الأسبوع الماضي إلى القرية لتشتري الخبز والمؤن، باتت لا تحب أن تفكر في ما ستتبادله ألسنة أهالي القرية.. كان في العيون التي تلاحقها الأسى عليها والشفقة..

أما طونيا فلم تحب سيلا أن تفكر في ردات فعل الفتاة..

قالت متلعثمة:

ـ ربما.. يجب أن أترك.. بعضاً من ملابسي في غرفتك.

ـ لا أفضل هذا..

تقدم إلى باب الردهة:

ـ هلاّ عذرتني.. سأكون في المكتبة حين ينتهي الطعام.

تلك الليلة عندما كانت مستلقية في السرير حاولت ربط أفكارها.. هل يهم ما تظنه طونيا أو ما يظنه أي إنسان؟ إنها ليست اتفاقية مؤقتة بل ترتيب طويل الأمد.. تلعب فيه هي ورايون أدوارهما.. إن لاحظت طونيا أن شيئاً ما ليس كما يجب فستواجه الموقف في حينه.. على أي حال هي سيدة المنزل لا طونيا.. ربما سمحت لها بالكثير من الألفة في الماضي وعليها أن تغير هذا في المستقبل. لكن هذه التوقعات محبطة، فطونيا رفيقة ممتازة وصديقة طيبة.

تقلبت متململة بين الأغطية.. يجب أن تحاول النوم وأن تتوقف عن تعذيب نفسها لتستيقظ في الصباح كالعادة. فلن يفيدها أن تبدو غداً متورمة العينين..

جعلها صوت فتح الباب وإغلاقه تجلس في السرير مستقيمة حابسة أنفاسها، تصغي.. لكن لم تسمع شيئاً آخر.. فتنهدت واستندت إلى الوسائد مجدداً.. ولكن الصوت أيقظها فنهضت بتهور من السرير، وارتدت روبها.. فتحت بابها بصمت ووقفت تصغي مجدداً! وأذناها حادتان لسماع أي شيء.

تحت ضوء القمر الشاحب رأت باب غرفة رايون مفتوحاً قليلاً فظنت أنه ترك غرفته ونزل إلى الأسفل، فتقدمت إلى رأس الدرج الملتوي تنظر إلى تحت. كانت الردهة في الأسفل تستحم بنور القمر.. وفيما كانت تنظر تحرك طيف على الأرض المغطاة بالسجاد.. وجاءت شهقة على شفتيها عندما أدركت أن توماس القط قد انزعج من الصوت عينه.

كان هناك خيط من النور يتسلل من تحت باب المكتبة.. فسحبت

سيلا نفساً مرتعشاً.. إذن، لم يستطع رايون النوم أيضاً.. وهذا ما طمأنها... إنه ليس عديم الإحساس كما تعتقد.. أحست بإغراء يدفعها للنزول إليه لعرض شراب ساخن، لكن العقل السليم منعها.. فآخر ما يريده الآن هو شراب ساخن.

تنهدت ثم عادت إلى غرفتها تقفل الباب خلفها على مضض.. بعدما خلعت الروب وعادت إلى السرير، فكرت في السنوات القادمة.. وتساءلت لماذا لم تبدُ لها من قبل كئيبة كما تبدو الآن.

* * *

٣ ـ زواج لن يدوم

مرّ أسبوع قبل أن تعلق طونيا على نوم سيلا في غرفتها القديمة.

كانت طونيا تعد أغطية الوسائد حين رفعت رأسها فجأة وقالت:

ـ آسفة لأن الأمور لم تسر على ما يرام بالنسبة لك مدام.

توقفت سيلا عن طي الشرشف الذي بيدها ونظرت بحرج إلى الفتاة الأخرى:

ـ أنا.. أنا.. عفواً؟

تنهدت طونيا ووضعت من يدها أغطية الوسائد:

ـ أنا آسفة مدام.. ولكنني لم أستطع إلا ملاحظة الأمر.. أنت والمسيو دوبار لا تتشاركان السرير ذاته.

أطرقت سيلا رأسها وقالت بصوت هامس متوتر:

ـ لم أكن أعرف أن هذا الأمر شأن من شؤونك طونيا.

تابعت طونيا النظر إليها بشفقة:

ـ أعرف هذا مدام.. ولكنني أحبك مدام.. ولا أحب أن أفكر في أنك غير سعيدة.

استرخت عضلات وجه سيلا قليلاً: «لست تعسة طونيا».

اتسعت عينا الفتاة:

ـ لست تعسة؟ أوه.. مدام! لا داعي للتظاهر أمامي.

أنهت طي الشرشف ووضعته بترتيب فوق الشراشف الأخرى بيدين ثابتتين.

ـ زواجنا أنا والمسيو دوبار يرضينا تماماً.. أنا واثقة أنك تفهمين الموقف.. كنت أعتقد أن زواج المصلحة أمر شائع هنا.

عبست طونيا:

ـ زواج.. مصلحة؟ آه.. أفهم قصدك.. لكنني لا أظنك فهمت أنت.. نعم أعترف أن في بعض الحالات تتزوج الفتاة برجل يناسب أهلها أكثر مما يناسبها.. وهو زواج مصلحة كما تقولين ولكنه زواج عادي مدام.. فما من امرأة تهب نفسها لرعاية رجل بدون أن تتوقع.. أوه.. تعرفين ما أعني..

تورد وجه سيلا:

ـ لا أريد معرفة شيء عن كل هذا. شكراً لك طونيا؟

نظرت طونيا إليها بقلق وارتباك:

ـ أنا آسفة مدام.. لم أعرف..

جاء دور سيلا بالارتباك:

ـ ماذا تقصدين؟ ما الذي لا تعرفينه؟

هزت طونيا رأسها وعادت لتهتم بأغطية الوسائد وهي تتمتم بينها وبين نفسها، فأحست سيلا بالسخط يتصاعد إلى كيانها.

ـ ما الذي لا تعرفينه طونيا؟

رفعت طونيا نظرها على مضض:

ـ أفضل عدم القول.. مدام.

شدت سيلا قبضتيها.

ـ لست.. غريبة الأطوار إن كان هذا ما تظنين!

جاء احتجاجها صادقاً:

ـ أوه لا مدام.. لم أعتقدك قطّ غريبة الأطوار.. و.. حسناً.. تعلمين أن.. أن.. السيد دوبار.. كان متزوجاً.. وأنا آسفة لأنك لا تشعرين بما أشعر به.

تحركت شفتا سيلا دون كلام للحظات، ثم: أية مشاعر؟

ـ سمعت أن الإنكليز باردون مدام ولكنني لم أصدق هذا.

الآن فهمت سيلا.

ـ هكذا إذن! تظنينني باردة، أليس كذلك؟

أحنت طونيا رأسها: آسفة مدام.

ارتدت سيلا وهي غير قادرة على تحمل نظرة الشفقة على وجه الفتاة، ثم قالت بحدة:

ـ حسناً.. أنا آسفة لأنني خيبت أملك طونيا.. إنما لا شأن للبرودة بهذا الموضوع.. فالسيد.. دوبار.. لم يلمسني حتى الآن.. ولا أريد منه أن يلمسني.. زواجنا هو زواج مصلحة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.. كان من مصلحتنا الانخراط في هذا الزواج.. وهذا كل شيء.

ـ أجل.. مدام.

الواضح أن طونيا لم تصدقها.. لكن ليس هناك ما تستطيع قوله لإقناعها. لقد قالت أكثر مما كانت تنوي قوله.. وليس لديها شك في أن رايون سيعتبر تصرفها أقل من كتوم.. ولكنها أبعدت هذه الأفكار عنها..

في الأسبوع التالي تلقت سيلا رسالة.

منذ مجيئها إلى فرنسا ومحامي خالتها وحده هو الذي يتصل بها من انكلترا.. لذا، كان من الغريب أن تستلم رسالة، خاصة رسالة عليها طابع بريد فرنسي.. حملت طونيا الرسالة حين جاءت إلى المنزل في ذلك الصباح، وعندما خرج رايون أخذت سيلا الرسالة إلى المكتبة لتقرأها بمفردها.

لم يكن العنوان في باريس مألوفاً لها.. وكذلك التوقيع في الأسفل: ليليان داموراي، لكن اسم العائلة هو اسم عائلة والدها فافترضت أن المرأة قريبة. وكانت على حق.. ليليان داموراي هي زوجة هنري داموراي، شقيق جدها، ولقد سمعت بموت ابن شقيق زوجها وبزواج ابنته برايون دوبار.. في هذه الرسالة قالت لها إنها طالما أرادت أن ترى ابنة ابن أخ زوجها، ودعتها للمجيء إلى باريس مع زوجها لقضاء أيام مع امرأة عجوز وحيدة.. فبعد موت زوجها لم يعد لها أحد.. وتحب كثيراً أن تراهما.

قرأت سيلا الرسالة مرتين قبل أن تعيدها إلى الغلاف وكم شعرت

بالدفء لأن في مكان ما من هذا العالم شخص يهتم بها..

حين عاد رايون وقت الغداء قدمت له الرسالة فأدارها بيده متسائلاً: ما هذه؟

ـ اقرأها.. إنها من زوجة عم أبي.

ألقى نظرة على الاسم المدون على الغلاف: ليليان داموراي؟

ـ أجل.. هذا صحيح.. لماذا؟ هل سبق أن التقيتها؟ هل تعرفها؟

وضع الرسالة من يده:

ـ أعرفها.. همم.. إنها لرائحة زكية.. ما هو؟

شهقت مستغربة:

ـ إنه حساء قوائم الغنم، ألم تتعرف إلى رائحته؟

ذاقت قليلاً منه كتجربة:

ـ أوه! لقد شاط قليلاً.

النقطت رغيفاً قسمته نصفين:

ـ ألن تقرأ الرسالة؟

ـ إنها موجهة لك.

تنهدت: «لا يهم.. أنت.. أنت زوجي».

واحمرّ وجهها.

وضع ملعقة حساء في فمه:

ـ أجل.. هذا صحيح.

تحركت سيلا بقلق في مقعدها:

ـ أرجو منك أن تقرأها.. تقول إنها سمعت بخبر وفاة أبي.. ولقد دعتنا لزيارتها.. في باريس.

لم يقل رايون شيئاً بل تابع تناول الحساء. راقبته سيلا، لا تفهم سبب عدم اهتمامه. أخيراً قالت:

ـ حسناً؟ أليس لديك ما تقوله؟

رفع رايون رأسه فلاحظت كم هي طويلة أهدابه السوداء التي تحيط بعينيه السمراوين.

- ماذا تتوقعين أن أقول؟

لوحت بيدها دلالة عجز:

- لا أدري.. مثلاً هل نستطيع الذهاب إلى باريس؟

- أتريدين الذهاب إلى باريس؟

لم تحتمل سيلا تفرس هاتين العينين، فنظرت إلى طبقها.

- حسناً.. سيحل الميلاد بعد ثلاثة أسابيع.. وفكرت..

هز رأسه:

- حسناً.. اذهبي إن كان ذلك ما تريدين.

ارتفع رأسها بحدة: بمفردي؟

- لن أذهب.

أحست سيلا بفقاقيع الإثارة في أعماقها تتفجر وتتبخر.. فقالت معترضة:

- لكنني لا أستطيع الذهاب بمفردي.

- ولِمَ لا؟

قطعت سيلا الخبز.

- أنا.. لا أستطيع فقط، هذا كل شيء. أضف إلى هذا أن باريس بعيدة.. وهذا يعني المبيت ليلة على الطريق.

قست عيناه:

- ابقي هناك مقدار ما تشائين من وقت، فأنا قادر على البقاء بمفردي.

- لا!

خرجت الكلمة منها بحدة، فنظر إليها مستغرباً:

- ولِمَ لا؟

أحنت سيلا كتفيها ووضعت مرفقها على الطاولة.

- إنه عيد الميلاد الأول الذي نشهده معاً.

دفع كرسيه إلى الوراء ووقف، ثم قال بفظاظة:

- أرجو ألا تصبحي امرأة عاطفية.. سيلا.. أمامنا أعياد ميلاد كثيرة نقضيها معاً.. ولن يختلف عيد عما سبقه!

بهذه الكلمات المتجهمة تركها.

بعدما أقفل الباب خلفه لم تتناول سيلا شيئاً من حسائها.. جمعت الأطباق المتسخة ووضعتها في المغسلة.. لماذا كلما حاولت أن تتصرف معه بشكل طبيعي يعمد إلى إحباط مساعيها؟ ظنت أنها أحسنت صنيعاً إذ نجحت في تدبير أمور المنزل والتبضع.. ولا تطلب منه إلا أن يكون متمدناً. لقد خفت حدة حقائق العلاقة الزوجية المرعبة التي واجهتها. في الواقع كان من النادر أن يشير إلى علاقتهما.. أحياناً حين يقول لها إنه خارج في الأمسيات بعد العشاء، كانت تتساءل عن هذا الجانب من طبيعته..

لم تكن تعرف الكثير عنه.. هل له أقارب؟ من كانت زوجته الأولى؟ كيف ماتت؟ وهل أنجب أولاداً من هذا الاتحاد؟ ولكنها شعرت بأنه شخص لا يمكن أن يتحمل مسؤولية أولاد.. كان مؤدباً معها، دقيقاً في مواعيد الوجبات، يقدّر لها ما تقوم به في المنزل ولكنه لا يعطيها من الاهتمام أكثر مما يعطيه لمدبرة منزل.. بدأ السخط يتحرك فيها.. على الرغم من أن والدها هو الذي اشترط هذا الوضع إلا أن رايون هو الذي أجبرها على القبول به..

في الأيام التالية بقيت الرسالة عالقة في ذهن سيلا، ولم يذكرها رايون ثانية. الواضح أن المسألة بالنسبة له انتهت.. لكن سيلا كانت غير راضية ولا تعرف فعلاً ماذا تفعل. أما الرد على الرسالة فأخرته.

ذات صباح وقبل الميلاد بأسبوع، قال لها رايون إنه ذاهب إلى «السيانز» وسألها عما إذا كانت تريد مرافقته، فأجفلتها دعوته غير المتوقعة.. وبما أنه كان بارداً معها مؤخراً فقد تساءلت عما إذا كان يحاول بهذا أن يعتذر.

تمتمت مفكرة: «أعتقد أنني سأذهب لشراء بضعة أغراض للميلاد».

منذ أن تزوجا خصص لها رايون مبلغاً معيناً من ريع الأراضي إضافة إلى تسديد فواتير تدبير المنزل في القرية. هز رايون كتفيه ونظر إليها بنفاد صبر.

ـ حسناً.. إن أردت المجيء فأسرعي.. سأغادر بعد نصف ساعة.

نظرت إليه بسخط:

ـ لكنني لم أرتب الأسرّة.. وهناك الأطباق..

ـ طونيا قادمة.. أليس كذلك؟

ـ أعتقد هذا.

ـ إذن فلتغسل الصحون ولترتب البيت.. عملها هنا غير شاق.

أحست سيلا أن لكلامه معنى خفياً، ولكن ليس لديها الوقت لتسأله.. وضعت صحون الفطور في المغسلة ثم أسرعت إلى فوق لتغير ثيابها.

للمرة الأولى تشعر برغبة في تزيين نفسها. أخرجت بذلة عاجية اللون من الخزانة وارتدتها مع قميص كحلي ثم انتعلت حذاءً طويلاً لف ساقيها النحيلتين، وارتدت معطفاً صوفياً على أطرافه فراء عاجي سميك. وعلمت أن مظهرها جيد.. كان شعرها الكستنائي ينسدل بخصل ملتفة حول خديها.. وارتفعت معنوياتها.

بدا لها أن رايون لم يتأثر بمظهرها فخاب أملها ولكنها سرعان ما نسيت خيبة أملها هذه.. ما الذي دهاها؟ إن تأنقها سببه ذهابها إلى بلدة فيها عيون أخرى تقومها وتعجب بها.

وجدت أن عينيها منجذبتان إليه وهما في السيارة.. وعزت السبب إلى رجولته المتجهمة التي تكرهها.. شعره الكثيف بحاجة إلى قص، ولكنه ينضح دوماً بالصحة.. ومع أنه لا يستعمل مصفف شعر فقد كان ناعماً مسترسلاً على رأسه ورائحته دائماً عطرة ممزوجة بعطر ما بعد الحلاقة والتبغ وبشيء آخر..

تساءلت عما هو الشعور عندما يحتضن الرجل المرأة. أحست بموجة مشاعر.. وأوقفت نفسها بسرعة عن هذه الأفكار وراحت تسيطر على تسارع أنفاسها.. لكن للحظة جمح خيالها وفتح الطريق لظهور وجه رايون الأسمر القاتم.

ألقى رايون نظرة على ساعته الذهبية وقال:

ـ لدي بعض الأعمال حين نصل إلى انسبانز.. أقترح عليك قضاء هذا الوقت بالتسوق أو بأي شيء آخر على أن نلتقي لتناول الغداء قبل عودتنا.

كانت سيلا مصدومة من ازدواجية مشاعرها وجاء ردها مختصراً غير مكترث:

ـ إذا شئت هذا.

نظر إليها: «هل من خطب؟ ألا ترغبين في ملاقاتي لتناول الغداء؟»

مررت يدها على شعرها بتوتر: بلى.. بالتأكيد.

ـ كان مجرد اقتراح ليس إلا. إذا كان لديك مخطط آخر تفضلينه فلا..

قاطعته بسرعة: «ليس لدي مخطط آخر.. أليس هناك ما تريد أنت شراءه؟».

هز رأسه: «كل ما أحتاج إليه يهتمون به جيداً في بيلياز».

ردت بمرارة: «أصدق هذا».

ـ وماذا تعنين بقولك؟

تورد وجهها: «لا شيء.. كنت فقط أوافقك الرأي».

أبعدت عينيها عنه وراحت تنظر إلى يديها.. أكرهه.. ولكنها عرفت أنه لا يلام على شعورها الزائد بوجوده.

ران الصمت دقائق ثم قال بهدوء:

ـ إذا كان مرد تصرفك هذا خيبة أملك بسبب ليليان داموراي أقترح عليك وضع ترتيبات لقضاء عدة أيام في باريس.. فالمحلات هناك أكثر تشويقاً من المحلات هنا.

ارتفع رأسها بحدة ونظرت إليه بامتعاض: لا أدري ما تعني.

ـ بل تدرين.. منذ أيام وأنت غاضبة غضباً جعلك لا تكلمين حتى نفسك.. والآن بعدما وجدت لسانك فلا ضرورة ليكون سليطاً.

ردت بسخرية: «لم أظنك ستلاحظ».

وأحست بالرضى عندما رأت عضلات وجهه تشتد، ورد بصوت مكبوح:

ـ لاحظت . . فأنت غير بارعة في إخفاء مشاعرك .

ـ عكسك تماماً .

ـ أنا أكثر قدرة منك . . وإلا لقلت ما قد أندم عليه فيما بعد ، خاصة وأنا أراك تناقشين شؤوننا الخاصة دونما استثناء .

انتفضت سيلا ورددت من غير فهم :

ـ أناقش شؤوننا دونما استثناء؟ لا أعرف عما تتحدث .

ـ ألا تعرفين؟ لكنك ناقشت أمر علاقتنا مع طونيا . .

تململت سيلا في مكانها :

ـ أنا . . ربما قلت شيئاً .

ـ بل قلت الكثير . . لقد قلت لها إنك لن تسمحي لي بلمسك .

ـ لا . . لم أقل هذا!

ـ وهي تشعر بالأسف عليك . . لكنها تشعر بالأسف عليّ أيضاً . . لقد حذرتك منها . . إنها تشعر بأنني بحاجة إلى . . مواساة .

شهقت سيلا . . هذا رهيب . . وأخفت إحباطها بالغضب وهي تسأل :

ـ وكيف عرفت ما قلته؟

ـ هذا شأني .

ارتدت في مقعدها نحوه :

ـ أوه . . حقاً؟ ربما أخبرتك طونيا ذلك بنفسها . . وربما . . تتسلى معها . . ولهذا إصرارك على أن أذهب إلى باريس!

ما إن تفوهت بالكلمات حتى ندمت . . فقد بدت كلمات سخيفة ، طفولية ، ملؤها الغيرة بشكل فاضح . ما الذي جعلها تقول له هذا؟

نظر إليها جانبياً ، ولوى فمه ساخراً لكن بمرح :

ـ أظنك تغوصين في مياه عميقة ، يا صغيرة . . لكن اعلمي أن طونيا ليست من طرازي .

بعد ذلك ران الصمت حتى وصلا إلى «انسيانز» التي تقع عند نقطة التقاء نهر «الباجو» ونهر «الروث» . . وكانت ضفة النهر معمدة بصف طويل من الأعمدة ، والشوارع الضيقة تفضي إلى الساحة التجارية ، حيث

يستطيع المرء أن يشتري كل ما يريد تقريباً . ورأت منازل طويلة لبعضها شرفات ونوافذ مليئة بالزهور والورود تتحدى الريح التي تصفر من الوادي قادمة من الثلوج التي تتساقط على الألب .

فتنها ما رأت فنسيت عداءها نحو رايون ، وصاحت معجبة بالجمال الغني . . وأجاب رايون على أسئلتها بطيبة ثم أوقف السيارة في زقاق صغير قريب من الساحة .

عندما كانت تترجل أوقفها رايون واضعاً يده القاسية على ذراعها :

ـ مهلك لحظة . . هل تحتاجين إلى مال؟

ـ لا . . فأنت تخصني بمبلغ كبير .

تابع عندما لاحظ وجهها المحترق :

ـ مع ذلك ففي هذا الوقت من السنة تزداد النفقات .

أخرج محفظته من جيبه ومد لها يده بحفنة من المال :

ـ هاك! اشتري لك شيئاً جميلاً للميلاد .

هزت رأسها ولم تأخذ المال .

ـ خذيها! إنها هدية . اشتري لك هدية مني .

ردت بكبرياء : «لا ، أفضل ألا أفعل» .

فالزوجات لا يشترين الهدايا لأنفسهن . . بل أزواجهن يفاجئنهن بشيء خاص . . ولكنها ليست زوجة عادية . . وليس زوجاً عادياً .

قلب الأوراق النقدية :

ـ لِمَ لا؟ ألا تكفي؟

شهقت سيلا : «أوه . . كيف لك أن تسأل مثل هذا؟ أنا لا أريد مالك . لدي مالي» .

تغير وجهه لأنه فهم أخيراً . .

ـ آه . . ! هل تتوقعين مني أن أقدم لك هدية الميلاد صباح العيد؟ هل هذا هو الأمر؟

ـ لا أتوقع منك شيئاً!

فتحت الباب بسرعة ، ووضعت القبعة الملحقة بالمعطف على

رأسها. كانت تدس خصل شعرها فيها حين ترجل ودار حول السيارة لينضم إليها.

سأل: «هل ستكونين على ما يرام؟»

أحست بضعف غريب وبدموع غبية تطرق مآقيها.

ـ هذا ما أعتقده.

كان صوتها جافاً بسبب الجهد الذي تبذله لتخبىء تأثيره عليها. حسناً يفعل لأنه يعاملها بمثل هذا التحفظ.. فلولا ذلك لوجدت صعوبة كبرى في البقاء منيعة أمام السحر الهائل الذي ينضح منه.

نظر مرة أخرى إلى ساعته:

ـ إنها العاشرة والنصف.. أقترح أن نلتقي للغداء. فلنقل.. بعد ساعتين؟ هل يكفيك هذا الوقت؟

هزت سيلا رأسها:

ـ لكنني لا أعرف طريقي.. يجب أن توجهني.

أمسك ذراعها بأصابعه ورافقها إلى شارع مرصوف بحجارة سوداء يفضي إلى الساحة التجارية.. ثم لفت انتباهها إلى أبنية واسعة تقف في مواجهتهما.

ـ سأكون هناك معظم الصباح.. إذا احتجت إليّ لا تترددي في المجيء.. وإلا أقترح أن نلتقي في «لادوفين» في الثانية عشرة والنصف.

وأشار إلى فندق صغير، واجهته مطلية بالأبيض.

أحست سيلا بشعور غامر لأن أصابعه تمسك ذراعها، ثم شعرت برغبة غريبة كادت تدفعها إلى أن تقول له وهي تمسك به أنها لا تريد أن تتركه وتذهب لتتسوق بمفردها. لقد مر شهران منذ زارت البلدة، وحاولت إقناع نفسها بأن الازدحام الشديد والجموع الغريبة الوجوه هي التي تثير فيها مثل هذا الإحساس بالذعر، لا لأنه سيتركها.. ولكن الحاجة الملحة إلى البقاء معه لم تكن عائدة إلى ما يحيط بها بل هي ترغب فعلاً في البقاء معه.

نظر إليها ينتظر ردها: «حسناً؟»

حاولت جمع شجاعتها ولكن حين رفعت بصرها إليه أحست بأن شيئاً مما تشعر به بدا في عينيها.. فقد اسودت عيناه وقطب حاجبيه ثم سأل بصوت أجش:

ـ ما الأمر؟ لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ سيلا.. حباً بالله ماذا قلت؟

عبثت إحدى يديها بأزرار معطفه وكأنها تدفعه عنها.. وقالت بصوت مرتعش:

ـ رايون، أنا.. أنا..

تناهى إليهما صوت نسائي فدمر اللحظة الحميمة بينهما:

ـ لماذا يقابل المرء دائماً أصدقاءه في أسواق انسيانس؟

أدارت سيلا رأسها بإحباط لتواجه المرأة الواقفة وراءها. كانت امرأة طويلة في أواخر العشرين أو أوائل الثلاثين متناسقة الجسد، ترتدي سروالاً ملتصقاً بساقيها وكنزة حمراء ضيقة.. كان شعرها أشقر مجعداً يحيط بوجه تعترف سيلا بجاذبيته.

ترك رايون سيلا لدى ظهور المرأة وابتسم لها:

ـ مرحباً هاربيت.. لم أكن أعرف أنك آتية إلى هنا اليوم.

ـ ولا أنا.

مرت عيناها بشكل مدروس على سيلا ثم أردفت:

ـ لو علمت أنك قادم لطلبت منك أن تقلني.. لكنني جئت بسيارتي.

نظر رايون مفكراً إلى زوجته، ثم قال:

ـ سيلا.. هذه مدام پينيلان، جارتنا في «بيلياز».

ردت سيلا بأدب: «كيف حالك؟»

لكن تفكيرها كان في شغل شاغل فالواضح أن رايون وهذه المرأة يعرفان بعضهما بعضاً بشكل وثيق وطريقة كلام هاربيت بينيلان تدل على علاقة حميمة بينهما.

وجهت هاربيت الكلام لها:

ـ إذن أنت زوجة رايون! أنت صغيرة جداً.. ألست هكذا؟

كان صوتها مشبعاً بالسخرية.. والكلمات توحي بتوبيخ ليس لسيلا

رد عليه.

تدخل رايون:

ـ هل أنت في عمل هاربيت، أم في رحلة تسوّق؟

ـ إنها بمعظمها للتسوق شيري.. وأنت؟

ـ لدي بعض الأعمال.. وتريد زوجتي القيام بشراء بعض الأغراض.

طافت عينا هاربيت متأملة:

ـ حقاً؟ إذن ربما علينا أن نضم جهدينا.. فهذا ما يمكننا من التعارف.. لقد احتفظت لنفسك بها طويلاً رايون.

في صوتها المزيد من السخرية، فارتدت سيلا تنظر إلى زوجها بعينين محبطتين فآخر ما تريده هو قضاء هذا الصباح برفقة امرأة ستتمتع كثيراً بالسخرية منها.. لكن رايون اختار أن يتجاهل التماسها الصامت.

ـ هذه ليست فكرة سيئة هاربيت.. سيلا غريبة هنا.. وكنت متردداً في تركها بمفردها. إنها تتحدث الفرنسية ببراعة ولكن اللهجة المحلية قد تربكها.. فهل تمانعين؟

بدأت سيلا تقول بيأس:

ـ أوه.. حقاً رايون.. سأكون على ما يرام..

لكن هاربيت هزت رأسها إيجاباً:

ـ زوجك يعرف أكثر منك شيري.. بإمكاننا تبادل بعض القيل والقال.

قال رايون:

ـ كنا سنلتقي للغداء في فندق «لادوفين» فهل تنضمين إلينا؟

ـ سأحب ذلك.

بدا الرضى على هاربيت الآن.. لكن سيلا كانت غاضبة بشدة.. كيف يجرؤ رايون على تنظيم صباحها بغض النظر عن مشاعرها.. لا يحق له أبداً أن يضعها بين يدي هذه المرأة وكأنها طفلة مشاكسة.

لكن لم يكن في يدها حيلة.. ابتسم رايون ابتسامة صغيرة متزمتة قبل أن يسير مبتعداً.

ما إن رحل حتى فقدت هاربيت مرحها وقالت بشيء من الضجر:

ـ ماذا ترغبين في شرائه؟

دست سيلا يديها في جيبيها وقالت صادقة: لا أعرف.

تنهدت هاربيت بشكل مبالغ فيه.

ـ أوه! أنت لست ممن يحبون التفرج على الواجهات فقط.

استمدت سيلا الكثير من السعادة في رؤية توتر هاربيت وأجابت:

ـ أجل. لكنك تعرفين أنك غير مضطرة لمرافقتي.. بإمكانك ملاقاتي قبل دقائق من لقاء رايون إذا أحببت.

ضاقت عينا هاربيت:

ـ لا أظن هذا شيري. أوه.. تعالي.. نحن نسد الرصيف.. فلنذهب من هنا.. ثمة مخازن بيع وبوتيك جديد يدعى «لاروا».. إنهم يبيعون ملابس للمراهقين على ما أعتقد.

تركت سيلا التعليق الساخر يمر.. فلديها من التعقل ما يكفي لتدرك أن أي جدال سيحدث بينها وبين هذه المرأة ستكون فيه الخاسرة. فللفتاة الأخرى السن والخبرة والواضح أن تربيتها مختلفة عن تربية سيلا التي كان عمادها معاملة الناس بأدب.

مع مرور الوقت تلاشى غضب سيلا، فقد كانت هاربيت على معرفة وثيقة بالبلدة وكانت تعرف المحال التي ستثير اهتمام الشابة التي وضعت في عهدتها..

اشترت سيلا عدة أشياء.. أدوات تجميل، عطور، زينة مشدات، وعطر ما بعد الحلاقة لرايون. قالت بينها وبين نفسها انها ستحتفظ به احتياطاً في حال أهداها ما هو مميز.. أغلى ما اشترت، كان كنزة كشمير عاجية اللون، وقفطاناً مخملياً بنياً مطرزاً بخيوط حريرية متعددة الألوان حول حافته وأكمامه.. كان استرساله يظهر قدّها الرشيق فتساءلت بارتباك عما سيكون عليه رأي رايون فيه.

أسوأ اللحظات كانت في المقهى الصغير الذي قررت هاربيت أن يلتقيا فيها لاحتساء القهوة.. كان المقهى مكتظاً بالمتسوقين ولكن بطريقة

ما تمكنت هاربيت من إيجاد مكان فارغ في الزاوية.. تناولتا القهوة والحلوى. كان حضن سيلا مليئاً بالمشتريات وكانت تراقب المنظر الحي في الخارج. ووجدت سيلا نفسها تتذكر آخر عيد ميلاد قضته في انكلترا مع خالتها مولي. لم تكن المرة الأولى التي تفكر فيها بخالتها.. لكنها اليوم شعرت بموجة شوق تجتاحها.. إنما شوق إلى ماذا؟ لم يعد لديها في انكلترا منزل تشتاق إليه.

كانت كلمات هاربيت حين تكلمت مثيرة للاضطراب:

ـ أعرف لماذا تزوجك رايون.. أتعرفين هذا؟

أعادت أفكارها إلى الحاضر وردت على مرافقتها: حقاً؟

ـ أجل.. أخبرني رايون بالطبع.

تساءلت سيلا لماذا «بالطبع» لكنها لم تسأل:

ـ هكذا إذن.

تابعت هاربيت وكأنها تناقش حال الطقس:

ـ وكم تتوقعين أن يدوم زواجك؟

حاولت أن تكون متماسكة:

ـ كم؟ لا أظنني فهمت مدام.

ـ يجب أن تفهمي.. أنت أنثى ولكنك لا تكادين تكونين امرأة! إنها حالة غير مرضية إطلاقاً في العلاقات، وستعرفين عاجلاً أم آجلاً أن عليك إبطال هذا الزواج.

ـ إبطاله؟ ليس زواجي شأناً من شؤونك مدام.

نظرت هاربيت إلى ما حولها، ثم مالت إلى الأمام لتقول بطريقة من تفضي بسر:

ـ أنا.. مغرمة كثيراً برايون، عزيزتي. أعرفه منذ ما يزيد عن تسع سنوات أي منذ جاء إلى «بيلياز» ومن الطبيعي أن أهتم بسعادته.

تصارعت سيلا مع المشتريات على ركبتيها وتمكنت من رفع فنجان القهوة إلى شفتيها.. ثم قالت بجفاء:

ـ أقدّر لك اهتمامك مدام.. إنما لا أعتقد أن عليّ مناقشة مثل هذه

الأمور معك.. وأنا واثقة أنك ستعترضين في ما لو سألتك عن زواجك.

ردت هاربيت بخفة:

ـ أنا أرملة شيري.. مات زوجي منذ ثلاث سنوات.. كان أكبر مني بكثير وأصيب بإرهاق قلبي بعد سنة من زواجنا.. هكذا ترين أنني أعرف بهذه الأمور.. لقد تزوجت زوجي لأنه كان ثرياً وأرملاً.. إنما وضعي يختلف عن وضعك.. فرايون يكبرك فقط بعشرين عاماً، أما زوجي فكان يكبرني بأربعين عاماً.. كان لديه أولاد كبار وكان في الستين، أما أنا فكنت في الثالثة والعشرين.. وهكذا أصبحت مالكة كاراج بينيلان.

ارتاعت سيلا من وقاحة هاربيت. لم تكن معتادة على الصراحة هكذا خاصة إذا كان الموضوع يتعلق بشؤون خاصة وشخصية.. وعرفت كذلك بعد نظر لم تكن تمتلكه سابقا أنه لو كان رايون في الستين من عمره لما لزوجته مهما كانت رغبات أبيها. وهذا ما أذهلها! لماذا يهمها عمر رايون ما دام زواجهما باقياً زواج مصلحة؟

نظرت بقلق إلى ساعة الجدار في المقهى، وقالت بشيء من الارتياح:

ـ لقد تجاوزت الثانية عشرة. ألا يجب أن نعود إلى الفندق في الساحة؟ قال رايون إنه سيلقانا في الثانية عشرة والنصف..

أشعلت هاربيت سيكارة طويلة وتجاهلت سؤال سيلا. ثم سحبت نفساً طويلاً وتركت الدخان يخرج من فتحات أنفها:

ـ أخبريني.. ألا تجدين الحياة في بيلياز مملة قليلاً؟ أعني بعد حياتك في انكلترا؟ فتاة في مثل سنك.. ومظهرك.. لا شك أنه كان لك الكثير من المحبين.

أجبرت سيلا نفسها على القبول ببضع دقائق أخرى.

ـ لا.. مدام، أنا لا أجد بلياز مملة.. لم يكن لي عدد كبير من المحبين. عشت مع خالتي.. ومع أنها لم تردعني عن مصادقة الشبان إلا أنني كنت قانعة بقضاء معظم وقتي معها.. كنت أقرأ كثيراً وأشاهد التلفزيون.

الواضح أن هاربيت لم تكن مهتمة بنشاطها إلا فيما ينعكس على

حياتها هنا:

ـ أجل.. أجل.. إنما ألم تكوني على علاقة مع أصدقاء شيري؟

تنهدت سيلا: «تعرفت إلى شاب أو شابين ولقد أضجراني كثيراً لأنهما كانا لا يهتمان إلا بالفتيات وبموسيقى البوب وبجني المال..».

نفضت هاربيت رماد سيكارتها في الصينية بنفاد صبر واضح:

ـ جئت إلى فرنسا بعد وفاة خالتك على ما أعتقد؟

ـ هذا صحيح.. وقبل أربعة أيام من موت أبي.

لوت هاربيت شفتيها: «وكان سوء حظ كبير».

لكن سيلا شعرت بأنها تعني سوء حظ لها لا للويس داموراي..

قالت سيلا مجدداً:

ـ أعتقد أن علينا أن نذهب..

أطفأت هاربيت سيكارتها بنفاد صبر لم تحاول إخفاءه:

ـ أوه.. حسناً.. بإمكان رايون الانتظار.

حين وصلنا إلى الفندق لم يكن هناك أثر لرايون. ولكن هاربيت أصرت على الدخول فوجدته جالساً على كرسي مرتفع أمام منصة بيع المشروبات. حين شاهدهما نظر متعمداً إلى ساعته فصاحت هاربيت:

ـ أعرف.. أعرف.. تأخرنا. لكن هذه الطفلة أصرت على شراء المحل كله! أنظر إليها.. إنها محملة بالمشتريات! ولا أدري ما كانت تشتري.

تقدم رايون نحوهما ليحرر سيلا من حملها:

ـ كان يجب أن نتفق على اللقاء قرب السيارة.. ولكنا تخلصنا من كل هذه.

ردت سيلا وهي لا تزال مصدومة من تعمد هاربيت الحط من قدرها:

ـ لا بأس.. أستطيع تدبير أموري.

تجاهل رايون احتجاجها وأعطى موظفة الاستقبال الأغراض لتضعها خلف طاولتها، وقال وهو يقود سيلا إلى المقهى مجدداً:

ـ والآن ماذا تشربين؟

لم تتمتع سيلا بالغداء.. لكنها لم تتوقع هذا.. فقد سيطرت هاربيت على الحديث الذي كانت توجهه نحو رايون.

أخيراً انتهت الوجبة وحان وقت المغادرة. وقفت هاربيت بتردد ظاهر.. وجنتاها متوردتان.. لفّت أصابعها بطيش حول ذراع رايون وقالت وهي ترفع بصرها إلى عينيه:

ـ هل سأراك فيما بعد شيري؟

ارتدت سيلا معطفها بدون مساعدة أحد، ولكن رايون حرر نفسه من قبضة هاربيت وأبعدها عنه وتقدم ليأخذ أكياس المشتريات محبطاً محاولات سيلا لمساعدته.

في الخارج كان الجو بارداً بعد غياب الشمس. ارتعشت هاربيت.. لم نظرت إلى رايون متوترة وتمتمت:

ـ أورڤوار شيري.. أورڤوار سيلا.. يجب أن تأتي لتناول الشاي معي يوماً. هذا ما يحب أن يفعله الإنكليز بعد الظهر. أليس كذلك؟ يمكننا أن نتحدث عن.. الخبرة.

أجبرت سيلا نفسها على الابتسام: شكراً لك مدام.

هزت هاربيت كتفيها ونظرت مجدداً إلى رايون.

ـ إذن.. سأذهب.

ـ أورڤوار هاربيت.. قودي بحذر.

ـ وأنت أيضاً.

تركتهما هاربيت وسارت في الساحة. تعمدت سيلا أن تنظر إليها وسألت بصوت بارد:

ـ أين السيارة؟

ـ من هنا.

الزقاق الذي أوقفا فيه السيارة كان مكتظاً.. ظنت سيلا للحظات أنهما عالقان وأنهما لن يتمكنا من الخروج.. فتح رايون السيارة ورمى المشتريات بعدم اكتراث، ثم فتح الباب لها لتدخل.. كادت تقول له إن بين المشتريات ما هو قابل للكسر لكن وجهه منعها من تقديم أي

احتجاج.. صفق بابها خلفها وارتدّ ليجلس إلى جانبها وراء المقود. وببراعة لا جهد فيها ناور في الطريق الضيقة بين سيارتين وأصبح عند مدخل الزقاق. تنفست سيلا الصعداء ما إن تركا الشوارع الضيقة عندما وصلا إلى طريق واسعة.. على طول ضفة النهر، كانت الأنوار مضاءة. كانت مصابيح ملونة تتدلى من الأشجار تضفي على المكان مظهراً خيالياً.

لم يعلق رايون على الزينة لكن صمته جعل سيلا تندم على انزعاجها السابق.. كان سبب الجو غير اللطيف في الفندق قضاءها ذلك الصباح برفقة هاربيت.. مع أنه هو المسؤول عن هذا، فقد بدأت تتمتع بالورطة التي حشرته فيها هاربيت.. على أي حال لم تكن صحبتها سيئة.. فقد اشترت أشياء مبهجة، ولهذا قصدت هذا المكان. أليس كذلك؟

سألت بأدب: «هل تمكنت من إنجاز ما جئت من أجله؟»

ساد صمت طويل كادت تؤمن فيه أنه لم يسمعها.. ثم سأل بدوره:

ـ هل كان عليك أن تجعلي من كراهيتك للسيدة بينيلان واضحة؟

ضعضعتها كلماته ودفعتها إلى الدفاع: عفواً.

ـ تصرفك نحو هاربيت بينيلان. أيجب أن تُظهري قلة نضوجك بالتصرف وكأنك طفلة مشاكسة؟

شهقت: «كيف.. كيف تجرؤ على هذا القول؟»

ـ أجرؤ لأنها الحقيقة.. كان زوجها صديق والدك.. أليس لديك اللياقة للتصرف بأدب مع أرملته؟

ـ التي هي صديقتك على ما أعتقد؟

ـ أجل.. هاربيت صديقتي.

ـ وصديقة حميمة على ما أتصور.

ـ ولماذا تقولين هذا؟

لوحت سيلا بيديها عاجزة.. لقد تكلمت بتهور ولكنها تريد الآن توضيح ما تعني ولا تعرف كيف.. قالت:

ـ أفضل ألا أتطرق إلى الموضوع.

سألها ببرود:

ـ ألهذا عاملتنا بمثل تلك التصرفات الطفولية؟ لأنك لم تعودي مركزاً للاهتمام؟

شهقت: «بالطبع لا.. لماذا أهتم بتصرفك مع النساء الأخريات؟»

ـ لا تعرفين كيف أتصرف مع النساء الأخريات!

ـ ربما هذا أفضل.

ـ لماذا؟ زواجنا غير عادي. لا يمكنك الحصول على قالب الحلوى وأكله بمفردك. أليس هذا ما يقولون في بلادك؟

ـ أنا نصف فرنسية!

ـ مهما يكن.. ما زلت تفكرين كإنكليزية. وأظنك تحبين أن تملي عليّ ما يجب أن أفعل.. أن تسيطري على تصرفاتي كزوجة إنكليزية.

ردت بغضب: «أوه.. أتظن هذا؟ حسناً.. أنت مخطىء كثيراً.. أنا لا أهتم أبداً بما تفعله أنت وهاربيت بنيلان!»

لكنها كانت تهتم!

مهما حاولت الإنكار.. فقد بدأت تشعر بشيء من التملك نحو رايون، ومع أن دافع شعورها هذا الأنانية فقد أزعجها.

تابع كلامه: «أظنك تصرفت بغباء.. وكل ما أرجوه ألا تعتقد هاربيت أن طبعك الحاد موجه إليها.. وأعتقد أن سبب سوء تصرفك شرحها أسباب تأخرك عن الغداء. أؤكد لك أنني لم أعترض..»

لم تستطع ترك هذا يمر وقالت بحرارة: «لست السبب في التأخير».

سأل بلهجة الأب المتساهل: ألم تكن؟

ـ لا.. وإذا كنت تريد أن تعرف السبب فهو أن عزيزتك المدام بينيلان صحبتني إلى مقهى وباشرت بتعريضي إلى عذاب الاستجواب!

عبس.. وارتبك.

ـ استجواب؟

ـ آه! تعرف كيف.. تحقيق.. أسئلة.. في الواقع سألتني كم أتوقع أن يدوم زواجنا.

أحست براحة كبيرة بسبب هذا التصريح.. ثم أحست بكراهية بغيضة

عندما عبس. كرر: «عندما سألتك كم تتوقعين أن يدوم زواجنا فبم أجبت؟»

امتقع وجه سيلا:

ـ لا أظنني أجبت.. لقد سألتني أسئلة كثيرة ولكنني لم أرد.

هز رايون رأسه:

ـ النساء! كيف يأمل أي رجل أن يفهمهن؟

رنت إليه بطرف عينها، وتساءلت عما سيقوله في ما لو أخبرته أن هاربيت ذكرت أن بينهما علاقة. كان لديها إحساس بأنه لا يرغب أبداً في أن تنشر المرأة التي اختارها خبر علاقتهما بشكل فاضح.

لماذا تحس أن من الصعب عليها تقبل هذه المعلومة؟ لقد عرفت منذ وقت، أن رايون على علاقة مع امرأة وحتى الآن بدت تلك المرأة غامضة غير واقعية، لم يكن هناك وجه محدد تضعه تجاه وجهه على الوسادة البيضاء.. لا أحد بين ذراعيه القويتين.. ولكن فجأة أصبح هناك وجه وقدّ رائع.. وأصبح الحلم حقيقة جارحة..

قال أخيراً بعدما أصبح الصمت بينهما مشحوناً:

ـ أقترح عليك أن تقولي لكل من يحاول سؤالك أن يوجه أسئلته لي في المستقبل.. وأنا آسف إن أزعجتك هاربيت بقلة لباقتها.

كان اعتذاره مفاجأة لها تأثير مزعج بعد التوتر الذي مرّ في الدقائق الأخيرة، وأحست بدموع غبية تخز عينيها مجدداً.. حين لم ترد نظر رايون إليها:

ـ ما الخطب الآن؟

مسحت عينيها بيدها بحركة طيش: لا شيء.

تنهد:

ـ لا أوافق.. لا بد من وجود آلام في زواجنا سيلا.. ولا بد أن تشعري في بعض المناسبات بعدم التفاؤل نحو المستقبل.. لكن ما يجب أن تفهميه أن الجميع يشعر هكذا من وقت إلى آخر.. فحتى أنجح الزيجات تعاني من عدم الاستقرار في البدء.

تمتمت: «أجل.. لكن ما بيننا.. ليس زواجاً.. أليس كذلك؟»

قسا صوته:

ـ ماذا تحاولين القول؟ أتتمنين لو كان حقيقياً؟

تورد خدا سيلا:

ـ لا.. لا بالطبع.. ما عنيته فقط.. أن.. أن علاقتنا أصعب من غيرها.. صحيح؟

التوى فم رايون إلى الأسفل:

ـ هكذا إذن.. أخبريني.. هل هناك شيء آخر قالته لك هاربيت؟ شيء لم تذكريه..؟

حركت سيلا كتفيها بحركة دفاعية: «وماذا قد يكون؟»

عبس ثم نظر إلى السماء المكفهرة:

ـ لا أعرف.. مرّ وقت..

وصمت قليلاً.. ثم:

ـ ليس مهماً.. والآن هل استمتعت بإنفاق مالك؟

حاولت سيلا استجماع حماسها لتخبره بما اشترت.. لكنها فشلت.. فذكرت ما اشترت وكأنها طفلة تردد المحفوظات، وأخفت فقط أمر القفطان المخملي.. لم تدر لماذا رغبت في أن يراها ترتديه بدون أن يعرف بوجوده.. مع أن هذه الرغبة في مثل هذه الظروف.. غير منطقية أبداً.

* * *

٤ ـ المشاعر الأولى

صنعت سيلا بمساعدة طونيا قصاصات ورق ملونة زينت بها المطبخ وقاعة الاستقبال الأمامية. لم تعرف حقاً ما إذا كانت ستستخدمها في موسم الاحتفال، ولكنه بدا الاختيار المنطقي.. فقاعة الاستقبال غرفة باردة كالحة، حتى بوجود نار مستعرة في المدفئة.. تساءلت عما إذا كانت ستقنع رابون بعد الميلاد بتجديد ديكور المكان بكرسيين مريحين بدل ذينك الكرسيين القاسيين اللذين يحتلان جانبي المدفأة.

ثم قبل يومين من الميلاد كان لدى طونيا أخبار مثيرة للاهتمام.

أعلنت وهي تخلع معطفها وتعلقه خلف باب المطبخ:

ـ رجل إنكليزي قادم إلى المدرسة مدام.. ليعلم الأولاد.. أليس هذا أمراً مثيراً؟ شخص من بلادك؟

ثار استغراب سيلا.. لكنها قالت بفظاظة:

ـ أنسيت يا طونيا أنني فرنسية بمقدار ما أنا إنكليزية؟

ابتسمت طونيا: «آه.. أجل مدام.. لكنك ما زلت تتكلمين لغتنا كما يتكلمها الإنكليز.. وأظن أنك ستتمتعين بالتحدث بالإنكليزية مرة أخرى».

أطلقت سيلا آهة استغراب:

ـ ماذا تقصدين بأنني سأتمتع بالتحدث بالإنكليزية مرة أخرى؟ قد لا أقابل الرجل أبداً.

ـ أوه مدام.. يجب أن تقابليه.. ومن الطبيعي أن تدعيه إلى العشاء..

وعليك لأنك تركت بلادك منذ فترة وجيزة أن ترحبي به في بيلياز.

أحست سيلا بالارتعاش ترقباً وتمتمت مخدرة التفكير:

ـ لا أدري.. سنرى هذا.

بدت طونيا راضية:

ـ أجل مدام.. أجل مدام.. سنرى.

حين ذكرت سيلا أمر وصول الرجل الإنكليزي، علق رابون بعدم اكتراث:

ـ لا يبقون عادة طويلاً.. القرية هادئة كثيراً بالنسبة لهم. وسرعان ما يفضلون مركزاً في ليون أو باريس.. أنا آسف على تخييبي أملك يا صغيرة.. ولكنني أشك في أن تجدي هذا الرجل مختلفاً.

ـ أنت لن تخيب أملي أبداً، لقد قلت لطونيا إنني قد لا ألتقي الرجل.

تلاعب بالحلوى الهشة أمامه:

ـ ماذا قالت طونيا؟ هل اقترحت أن تقابليه؟

ـ أنا.. قالت شيئاً من هذا القبيل.. أنا.. تظنني أشعر بالوحدة.

نظر إليها بحدة: وهل تشعرين بالوحدة؟

نظرت إلى طبقها وردت صادقة: «أحياناً».

رد بتوتر: «فهمت».

قالت بحرارة وهي ترفع رأسها إليه:

ـ حسناً.. أنت لا تكلمني إلا عن الطقس.. أو.. عن صحتي.. أوه.. وأحياناً عن العنب.

ـ عم تريدين أن أتكلم؟

هزت كتفيها بعدم مبالاة:

ـ لا أعرف.. ثمة مواضيع كثيرة.. أنت لم تتكلم قط عن نفسك. ماذا فعلت، أين عشت قبل مجيئك إلى هنا.

ابتلع لقمة من الحلوى:

ـ آه.. هكذا إذن.. ماضيّ هو الذي يثير فضولك.

ـ ولِمَ لا؟ تعرف تقريباً كل شيء عني.. أما أنا فلا أعرف شيئاً عنك!

دفع طبقه جانباً:

ـ حدث ذلك منذ زمن طويل.. قد لا يثير اهتمامك.

تنهدت بإحباط:

ـ بلى.. على أي حال سأعرف على الأقل اسم زوجتك الأولى.

رفع حاجبيه:

ـ حسناً.. كان اسمها آنا بارون.. هل يرضيك هذا؟

لا يرضيها بالتأكيد، لكنها لا تستطيع قول هذا.. بل قالت:

ـ لا شك أنك كنت صغيراً جداً عندما تزوجتها.

مد يده يأخذ سيكاراً: كنت كبيراً بما فيه الكفاية.

حاول القيام لإشعال رقاقة خشب من النار، لكنها سبقته ومدت الخشب المشتعل إلى السيكار. لقد باتت تألف عادته فلو وقف لاعتذر ولدخل إلى مكتبته حيث ستضطر إلى تقديم القهوة له هناك تاركاً إياها بمفردها.

شكرها، وعاد إلى الجلوس ينظر إليها بعينين ساخرتين، فأدركت أنه فهم سبب حركتها ولكنه قرر التسامح.. شغلت نفسها بجمع الصحون المتسخة من المائدة.

قالت: «ألم تنجبا أولاداً من هذا الزواج؟»

ـ لا.

لعقت شفتيها: كم.. كم دام هذا الزواج؟

ـ أنا وآنا انفصلنا بعد سنتين ولكن الزواج دام سبع سنوات.

ـ فهمت.

ولكنها لم تفهم.. دفع كرسيه إلى الوراء ثم وقف:

ـ هل هذا كل شيء؟

نظرت إليه بنفاد صبر.. وصاحت:

ـ تتصرف وكأنني تطفلت على خصوصياتك!

هز كتفيه: «أنا آسف».

ـ لا.. لست آسفاً.. فأنت تعرف أن الناس لا يتزوجون إلا لأسباب

مقنعة.. وأن للانفصال أسباب عديدة.

ـ أعرف، لكن إن توقعت أن أفضي إليك بهمومي فقد وقعت بالخطأ.. أنا مستعد لذكر وقائع زواجي الأول أما التفاصيل الحميمة فلست مستعداً للتحدث عنها.. إنها لا تعنيك.

بهذه الكلمات ارتدّ على عقبيه.

حل صباح الميلاد مشرقاً صافياً.. في الوادي كانت الكنيسة تقرع أجراسها.. وأدركت سيلا بوخز ضمير أنه الميلاد الأول الذي لا تحضر فيه قداس منتصف الليل.

ألقت نظرة على ساعتها فعلمت أنها تجاوزت الثامنة.. تنهدت ثم خرجت من السرير.. في الليلة السابقة كانت قد نظفت الديك الرومي الذي أحضره رايون بناء على إصرارها وكانت تريد أن تحضر عشاء ميلاد إنكليزياً حقيقياً.. وأحست أنها تريد أن تظهر جذابة فبذلت جهدها للتزين وارتدت تنورة عاجية وقميصاً أحمر.

كان المطبخ بارداً كما لم يكن يوماً ولم تجد لرايون أثراً.. ولكنه لم يشعل النار حتى قبل خروجه. ارتجفت وهي تركع لتنتقي الفحم.. واجتاحها إحساس بالكآبة.. لماذا يغيب رايون اليوم من بين كل الأيام؟

ثم أنبت نفسها.. ولمَ لا على أي حال؟ إنه يستيقظ في معظم الأيام باكراً ويحق له اليوم أن يستريح.. لكن طرأت على بالها فكرة ثانية صدمتها.. ماذا لو لم يكن هنا؟ ماذا لو قضى ليله في مكان آخر ولم يرجع حتى الآن؟

وضعت الرماد فوق صحيفة قديمة وحاولت عدم التفكير في ما يفعله رايون.. رمت قطعة من الصحيفة دستها بين الفحم في الموقد ثم أضافت الحطب وأشعلت الورق تحته..

وقفت تحمل الرماد إلى الخارج.. وبلل المطر وجنتيها أما الريح فكانت تصفر بشكل مخيف في الخارج.. وأحست بالراحة عندما عادت إلى الداخل، إلى دفء النار التي كانت تستعر.

راحت تعدّ الشاي غير مبالية إذ لم يعد يهمها مكان وجود رايون أو

ماذا يفعل. تقدم الهر يمسح رأسه بساقيها وكأنه يواسيها.. ذكرها ظهور الهر المطالب بفطوره أن أمامها الديك الرومي لتهتم به.. أشعلت الفرن.. ثم وضعت الطير برضى فيه قبل أن يصل توماس الشره إليه ثم جلست ترتشف الشاي بلذة حقيقية.. وعندما كانت تسكب فنجاناً آخر ثانياً انفتح باب المطبخ وظهر رابون.

الواضح أنه استيقظ لتوه إذ لم يحلق ذقنه.. بدا مثيراً بشكل يثير الاضطراب.

مرر يده في شعره وقال:

ـ يا إلهي سيلا.. أنا آسف! لقد غططت في النوم ومتى؟ في صبيحة الميلاد أيضاً. أتوقع أن يشوّه هذا اسمي!

ابتسمت له.. ولم تدر أشعرت بالراحة لأنه كان في المنزل أم لا. وتمتمت: «لا بأس في هذا».

أغلق الباب خلفه: «لا.. بل لم أحلق ذقني حتى.. ليتك.. ليتك غططت في النوم أيضاً».

هزت رأسها وكأنها تعتذر:

ـ هل ترغب في بعض الشاي؟

وقف بينها وبين خزانة المطبخ:

ـ بعد قليل.. قبل أي شيء يحق لي أن أتمنى لك ميلاداً سعيداً سيلا.. وأقدم لك هذا المربون الصغير المعبّر عن تقديري.

أمام ذهولها الكامل، أخرج لفافة صغيرة من جيبه ووضعها في يدها.

نظرت سيلا إلى اللفافة بعدم تصديق فلم تتصور حتى في المنام بأنه قد يشتري لها شيئاً، وعندما اشترت له زجاجة عطر ما بعد الحلاقة لم تتوقع أن يهديها شيئاً.

تمتمت: «أنا.. أنا لا أعرف ماذا أقول».

ـ افتحيها وانظري إن كانت تعجبك.

كانت هدية صغيرة.. تصورت أن تكون «بروشاً» أو قرطاً.. ولكنها لم تكن هكذا.. حين فتحت غطاء علبة المجوهرات ظهر أمامها خاتم من

البلاتين مرصع بالألماس.. رفعت عينيها إلى عينيه بذهول فأخرج الخاتم من فراشه المخملي ودسه في إصبعها الذي يحمل خاتم الزواج الذهبي.

قال معلقاً: «بما أنه لم يتسنَ لنا الوقت لشراء خاتم خطوبة فكرت أنك قد ترغبين في خاتم.. يبدو رائعاً أليس كذلك؟».

فقدت سيلا القدرة على النطق فهزت رأسها موافقة وأدركت كم سيبدو عطر ما بعد الحلاقة تافهاً.

توقع منها أن تقول شيئاً، وأجبرت شفتيها على التحرك لتقول بأنفاس متحشرجة:

ـ إنه.. إنه جميل.

ـ لكن.. هل أعجبك؟

ـ طبعاً.. طبعاً.. شكراً لك، شكراً كثيراً لك.

اندفعت بشكل لا إرادي فرفعت نفسها تعانقه.. فالتصق في لحظة مفاجئة جسمها بجسمه.. شعرت بوهن غير مألوف وترنحت ترنحاً جعلها تمد يديها إلى ذراعه لتستعيد توازنها.. لكن قبل أن تلمسه كانت يداه تطبقان على ذراعيها تبعدانها عنه بلطف وحزم.

عندما سيطرت على الإحساس السخيف المذل، ارتدَّ عنها يأخذ فنجان شاي من الخزانة ليسكب فيه بعض الشاي.. وفيما كان يحتسيه شعرت سيلا بأنها استعادت رباطة جأشها وأخفت ضعفها وراء قناع الأدب.

خلعت الخاتم من إصبعها.. وأعادته إلى علبته ثم قالت:

ـ ما كان يجب أن تفعل هذا.

ـ ولِمَ لا؟

ـ إنه.. إنه غالي الثمن.

ـ أنا من يقرر ما إذا كنت أستطيع أو لا أستطيع شراءه.

هزت رأسها: ليس لدي ما أرد الهدية.

بدا نافد الصبر:

ـ وهل تعتقدين أنني أتوقع منك أن تهديني شيئاً؟ الخاتم تقدير مني

للطريقة التي استقريت فيها هنا.. أدرك أن الأمر غير سهل عليك، أقصد بسبب انفصالك عن عالمك الذي اعتدت عليه.. أنا لست بارعاً في الكلمات.. وهذا الخاتم تعبير عن امتناني.

تساءلت لماذا كانت كلماته تنقص من السعادة التي أحست بها حين تلقت منه الخاتم.. في البداية تصورت بغباء أنه دليل على أنه بدأ يلاحظ أنها زوجته، ولكن من الواضح أن دوافعه كانت غير شخصية أبداً.. وضعت العلبة التي تضم بين جنباتها الخاتم على رف المغسلة وبدأت بتحضير الفطور.. لا شك أن الميلاد جعلها حالمة وهل نسيت أنها منذ أقل من ثلاثة أشهر كانت مؤمنة أنها تكرهه؟

ابتهج الأب عندما رآها في الكنيسة ذلك الصباح.. بعد القداس جاء ليتحدث إليهما.. وفيما كانوا يتحدثون أجفلها سماع صوت آخر يقول:

ـ ميلاد سعيد رايون! ميلاد سعيد سيلا!

وكانت هاربيت بينيلان التي بدت في غاية الأناقة إذ كانت ترتدي بزة زمردية وتضع على كتفيها فراء ثعلب.. ابتسم الأب العجوز مرحباً بها:

ـ صباح الخير مدام.. تبدين رائعة في هذا الصباح الكئيب. الواضح أن الطقس البارد لا يزعجك.. أما أنا فأجد عظامي العتيقة تحتج.

سارعت هاربيت تطربه بأنه لا يبدو عجوزاً وضحك الجميع.. ونظرت هاربيت إلى رايون وسيلا مفكرة، ثم سألت ساخرة:

ـ ماذا وضع «بابا نويل» في جوربك سيلا؟ أرجو أن يكون شيئاً لطيفاً.

كانت سيلا واثقة أنها لا ترجو لها خيراً، وتمنت لو ارتدت خاتمها لتدسه تحت أنفها.. ولكنها اكتفت بالقول:

ـ لم يخب أملي مدام.. فهل خاب أملك؟

أخفت هاربيت توترها وارتدت إلى رايون:

ـ وماذا عنك.. مون شيري..؟ ألم يخب أملك كذلك؟

ـ لا يجب على المرء أن يتوقع الكثير ولن يخيب أمله.

ضحكت هاربيت وضم القسيس رداءه:

ـ الآن يجب أن تنضموا إليّ لاحتساء القهوة في منزلي.

لم يستطع أحد تخييب أمل العجوز فلحقت سيلا به وهي تعرف أن رايون وهاربيت يتبعانها. كان الجو في المنزل مرحاً فاسترخت سيلا ترفض أن تعترف أن زوجها يبدي اهتماماً بهاربيت أكثر مما يبديه نحوها. أخيراً أعلن رايون عن وجوب ذهابهما.. فقالت هاربيت محبطة:

ـ أيجب أن تذهبا؟ الوقت مبكر رايون

رد بصوت بارد:

ـ أمام زوجتي تحضيرات كثيرة.. ستتناول عشاء إنكليزياً تقليدياً. أليس كذلك سيلا؟

هزت سيلا رأسها إيجاباً وتورد وجهها فصفق القسيس يديه وصاح مبتهجاً:

ـ رائع.. رائع.. ما زالت زوجتك تخجل من اهتمامك بها رايون.. وهذا بعد ثلاثة أشهر زواج! هذا أمر ساحر.. أليس كذلك مدام؟

وارتدّ مجدداً إلى هاربيت، لكنها تجاهلت سؤاله وابتسمت لرايون وقالت:

ـ ربما تأتي مع زوجتك للعشاء ذات مساء.. فلنقل.. بعد ثلاثة أيام؟

تقلصت أعصاب سيلا ولكن رايون عبس:

ـ إن قبلنا الدعوة أعلمنا... وشكراً لك على الدعوة.

ودعا القسيس، ثم غادرا منزله يسيران بسرعة إلى حيث أوقف رايون سيارته.. قبل أن يديرها التفت إليها قائلاً:

ـ هل أرضاك هذا؟

اتسعت عيناها: «ماذا.. ما هو الذي أرضاني؟»

ـ تصرفي مع المدام بينيلان؟ لا داعي للتذمر.. أليس كذلك؟

نظرت إليه حائرة ثم هزت رأسها ببطء:

ـ إذن.. أنت تعترف أنها.. أنها تجذبك؟

قال موافقاً بدير المحرك:

ـ هاربيت تحب الرجال.. والرجال يحبونها عادة.

ـ وأنت؟

نظر إليها ساخراً: «أنا رجل بالتأكيد.. ألست رجلاً؟»

لم يكن رده مرضياً ولكنه بدا الرد الوحيد الذي ستتلقاه..

قررت تقديم الطعام باكراً بعد الظهر ووافق رايون:

ـ هذا سيمنحني فرصة لإلقاء نظرة على بعض الأرقام التي سأحتاج إليها إلى ما بعد يوم الغد.

أخفت سخطها لاختياره العمل اليوم من بين جميع الأيام.

بعدما أنهت تحضيرات العشاء صعدت إلى غرفتها لتستحم.. ثم ارتدت القفطان المخملي البني.. ودارت حول نفسها بانتقاد أمام المرآة. بدا القفطان جذاباً كما كان في المحل.. لكن هل هو رسمي أكثر من اللازم لمثل هذه المناسبة؟

في الأسفل كانت الوجبة جاهزة تقريباً.. لم يكن هناك حلوى الميلاد، بل اكتفت بفطائر صغيرة وأرسلت لها والدة طونيا فطيرة فاكهة.

أخذت علبة المجوهرات باندفاع عن الرف ووضعت الخاتم الذي برق في يدها بسبب النور المنبعث من النار فأكمل جمال أصابعها النحيلة.. وفيما كانت تنظر إليه بإعجاب دخل رايون إلى المطبخ. ضاقت عيناه حين شاهدتا سيلا ثم تنقلتا بإعجاب على جسدها.. فوقفت جامدة تنتظر رأيه ولكنه قال:

ـ أنا جائع.. ألم يته الطعام؟

أصيبت بخيبة أمل أفقدتها أعصابها:

ـ بلى، تكاد تنتهي.. إنها وجبة أخرى على أي حال، أليس كذلك؟ ليتني ارتديت جينز وكنزة وقدمت الوجبة هنا.. في المطبخ.. أليس كذلك؟

رفع حاجبيه: ألن نأكل هنا؟

ـ لا.. لا.. لن نأكل هنا لقد حضرت المائدة في غرفة الطعام، إنما لا أدري لماذا أزعجت نفسي.

ارتدت عنه وانتزعت الميدعة التي أخذت تربطها حول خصرها بتوتر وكانت الدموع تعمي بصرها.. لا شيء تغير واليوم لا يختلف عن الأيام

الأخرى.

ثم.. انتفضت بعنف حين أطبقت أصابع على كتفيها ولفح نفس حار مؤخرة عنقها، وتشنجت وهو يقول:

ـ أنا آسف سيلا.. أنا عديم الإحساس. كان يجب أن أدرك أن الميلاد سيذكرك بأعياد أخرى قضيتها مع عائلتك..

حاولت التحرر منه.. إنه مخطىء، وآخر ما تريده هو شفقته:

ـ أرجوك دعني وشأني! يجب أن أهتم بالديك الرومي..

ـ سيلا.. أصغي إليّ! أنا أحاول أن أقول لك.. أنني أفهم..

ـ أنت لا تفهم! ولن تفهم أبداً! أوه أتركني!

دفعه نفاد الصبر إلى هزها ففقدت توازنها ووقعت إلى الخلف عليه، فترك كتفيها ليمسك خصرها.. بعد لحظة أمسك بها وألصقها به فشعرت بخفقات قلبه.. ولكن ذلك حدث للحظة إذ تركها بعدها وارتدّ ليشعل سيكاراً.

كانت وجبة الطعام ناجحة.. الواضح أن رايون مصمم على إبعاد أية مشاكل. تذوق لحم الديك الرومي وهنأها على طعمه ومظهره.. كان كل شيء مطهواً ببراعة. بعد الطعام حملت الأطباق إلى المطبخ، ثم قدمت القهوة في غرفة الجلوس.. كان الظلام قد بدأ يخيم في الخارج، والريح تصفر. ولكن المكان حميم في الداخل ودافىء والنار تتقد وتلقي ظلالها على السقف.

كانت عينا رايون نصف مغمضتين، لكنه فتحهما وقال:

ـ كان العشاء لذيذاً.. ما كنت لأصدق أن الطبخ الإنكليزي قد يكون بهذه الجودة.

ارتشفت سيلا قليلاً من قهوتها:

ـ هذه قصة ابتدعها الفرنسيون الغيارى.. لكن العشاء كان لذيذاً.. أليس كذلك؟ مع أن أمامي صحون كثيرة أغسلها.

ـ سأساعدك فيما بعد.

فابتسمت له:

ـ شكراً، لكنني أستطيع أن أتدبر أمري.. سأفعل هذا لاحقاً.

تأملت خاتمها مجدداً: ألا تظنه جذاباً؟

ـ لطيف جداً.

ارتشفت المزيد من القهوة.. وجلست لحظات تحدق إلى النار شاعرة أن الحرارة تثقل جفنيها. كان رايون قد أغمض عينيه، بعد لحظة أدركت أنه نام، فتنهدت، هذا أول عيد ميلاد لهما يقضيانه معاً ولم يكن شيئاً كما توقعت.

توردت وجنتاها لكن حرارة النار أخفت طبيعة احمرارها.. رفعت الإبريق لتسكب المزيد من القهوة.. ولمَ لا؟ إنه الميلاد ومن حقها الإحساس بالراحة المنزلية مرة في السنة.

تحركت بتهور على ركبتيها فركعت عند قدميه الممدودتين قرب النار.. ثم تركت أصابعها تتجول حول كاحله فوق جواربه الصوفية التي يرتديها.. لكن فعلها لم يثر فيه أي رد فعل.. ففتحت أصابعها ودفعت جانباً قماش الجورب لتلمس بشرة ساقه.. تحرك متململاً.. ولكنها عرفت أنه تصور أن القط كان يمسح جسده بساقيه..

ابتسمت لنفسها ثم تحركت حتى أسندت ظهرها إلى جنبه، وسحبت نفساً عميقاً.. ما الذي أصابها؟ لماذا تحس بالتوتر فجأة؟ ماذا تريد من هذا الرجل.. الذي هو زوجها؟

ضغطت شفتيها بتعاسة.. لم تهتم قط برجل عرفته. في الفترة الأولى على زواجها كان مجرد التفكير في علاقة حميمة معه ترعبها.. ولكنها الآن ليست خائفة أبداً من رايون.

لكن ربما ارتعاشها أقلق منامه.. فقد انفتحت عيناه فجأة وسرعان ما قوّم الموقف.. ولكنه لم يسحب يده بسرعة كما توقعت وتلقى نظرتها وهي تلتفت إليه ثم تعمد أن يداعب ياقة القفطان.

كادت أنفاسها تخنقها.. بدا كل شيء يحدث بحركة بطيئة وكأنها في حلم.. عرفت أن الأمر عائد إليها فعليها هي أمر الانسحاب عن حافة الهاوية التي تسير فوقها ولكنها لم تستطع. أرادت أن يعانقها، لكن

المشاعر الجامحة في نفسها أرعبتها.. فتحركت.

لم يحاول منعها حين وقفت، بل رفع رأسه لينظر إليها بعينين مشمئزتين بصراحة.. ولم تعرف سيلا ما تقول..

وقف رايون: أوه.. بحق الله! ماذا كنت تطلبين مني سيلا؟ أنا لست عديم الخبرة بالنساء.. أردت أن أعرف إلى أي مدى أنت مستعدة للذهاب!

شهقت: «ماذا تعني؟»

رفع عينيه نحو السماء: «قصدي واضح، أدركت منذ بعض الوقت أنك وجدت مخالبك، يا صغيرة.. وهذا يجب أن يحدث.. وكنت مستعداً له.. ولكن سرعان ما ستتعبين من شحذها عليّ!»

ـ لا أفهم قصدك.

ـ حذار يا صغيرة.. إذ لا يمكن التكهن بما قد يفعله الرجال حين تثور ثائرتهم.. وأنت تبذلين جهدك لإثارتي.. لا أعرف السبب.. ولكنني أعزوه إلى عدم خبرتك.

أحست بالإذلال:

ـ أعتقد أن عليّ تقديم الشكر لك؟

ـ ربما.

ـ لا دور لك في تصرفي بالتأكيد!

ـ لا دور لي بشكل إرادي.

ـ وماذا عما جرى قبل العشاء؟

أمسك ذراعيها يسأل: «ماذا حدث قبل العشاء؟»

ارتعشت شفتاها: لا، لا شيء.

ـ هذا رد غير مفيد.

ـ حسناً.. حين.. حاولت الاعتذار.

ـ و..؟

ليتها غير مضطرة لمتابعة الكلام!؟ لعقت شفتيها:

ـ حين.. ضممتني بين ذراعيك.. و.. و..

- أوه.. فهمت.. لقد ظننت.. أنا آسف لأنني أخيب أملك يا صغيرة.. إنما بالإمكان إثارة الرجل بأشياء كثيرة.

انتزعت نفسها عنه ثم ارتدت رافعة يدها لتحط على وجهه الساخر.. انتفض فظنت للحظة أنه سيرد.. لكنه ارتدّ وترك الغرفة بدون أن يتفوه بكلمة.. بعد بعض الوقت الذي كانت فيه مسمرة في مكانها بائسة قرب النار، سمعت الباب الخارجي يُصفق.. وأدركت أنه ترك المنزل.

***

في الأيام الثلاثة التالية لم تكد سيلا تراه.. إذ كان خارج المنزل معظم الوقت يتناول الفطور قبل أن تستيقظ صباحاً ولا يعود إلى الغداء، أما تواصلهما الوحيد فكان وقت العشاء. عرفت طونيا أن خطباً ما حدث ولكن سيلا رفضت تباحث الأمر معها.

في الأمسية الثالثة عندما عاد رايون للعشاء اتضح لها أن هناك خطباً ما.. فقد كان يجد صعوبة كبرى في ابتلاع قطع اللحم اللذيذ الذي حضرته له.. عندما لامست يده صدغه وجدت بشرته حارة كالنار، فأدركت أن حرارته مرتفعة وأنه بلا شك مصاب بالأنفلونزا، أو على الأقل بنوبة برد.. لكن تجهمه لم يترك المجال لأي تدخل.

مع ذلك عليها أن تجرب.. فقالت مترددة:

- ألست على ما يرام رايون؟

رفع عينين مرهقتين إليها: لماذا؟

- يجب أن تكون في الفراش.. يجب أن ترى طبيباً.

رد بلهجة ساخرة:

- سأكون بخير.. شكراً لك، أنا آسف لأنني لا أستطيع إبداء

الإعجاب بطبخك هذا المساء.. لكن حتى أكون صادقاً.. أوه.. يا إلهي!

صمت فجأة، فنظرت إليه فرأت قطرات العرق تتفصد فجأة من جبينه، وبدا أن موجة غثيان تجتاحه.. ترنح حتى وصل إلى المغسلة، شفتاه تلتويان بسخرية ذاتية، ووقف هناك يتقيأ عاجزاً.

انتظرت سيلا حتى انتهت تشنجات معدته، ثم تجاهلت محاولاته الضعيفة لإبعادها عنه وجففت له وجهه وقالت بهدوء:

- سنذهب إلى السرير فوراً.

لم يعترض. ساعدته على ارتقاء الدرج الملتوي.. وما إن أصبح في غرفته واستراح في سريره حتى بدأت تفك له أزرار قميصه، فتمتم بشراسة:

- أستطيع فعل هذا.. حباً بالله! دعيني وشأني! قلت إنني سأكون على ما يرام.

تركته يدخل إلى فراشه. لكنها جاءت بعد دقائق فوجدته مستلقياً بين الأغطية يرتجف، فرجعت بسرعة لتملأ قوارير الماء الساخن.. ملأت أربعة، لكن حين عادت صاح رايون:

- ألا يمكنك تركي وشأني؟

ورفض السماح لها بكشف الغطاء عنه لوضع قوارير الماء الساخنة حوله.. سألته بنفاد صبر:

- أتريد أن تصاب بالتهاب رئوي؟ رايون كن عاقلاً! أنا أريد مساعدتك فقط.

رفعت الغطاء عنه حتى معدته.. ثم حبست أنفاسها لأنه لا يرتدي بيجاما.

ثم أجبرت نفسها على هدوء كانت بعيدة عنه كل البعد ودفعت زجاجة على جبينه، ثم انحنت لتضع الأخريين تحت الغطاء قرب قدميه. وبعد ذلك لفت الغطاء حول كتفيه مجدداً وتجاهلت تعبير وجهه الغاضب وسألت:

ـ أليس لديك بيجاما أبداً؟

ـ لا أظن.

ـ لكنك بحاجة إلى ما تلبسه.

ـ لماذا؟ لم أحتج إلى ما أرتديه منذ سنوات طوال.

تنهدت سيلا وارتدت إليه منهزمة:

ـ سأحمل إليك ليموناضة وبعض الأسبرين. هل ستتجرعها؟

تمتم منكراً عرفان الجميل:

ـ إن كانت ستبعدك عن غرفتي.. أجل.

صممت على ألا تصدها تصرفاته فهو مريض وعلى عاتقها تقع رعايته.

استيقظت في ساعات الفجر الأولى على سعاله. وبعد لحظة تردد خرجت من السرير ووضعت روبها وهرعت مسرعة إلى غرفته.. فتحت الباب بحذر خشية أن يصيح بها لأنها تجرأت على دخول غرفته ليلاً.. ولكنها لم تكن بحاجة للقلق لأنه لم يكن واعياً تقريباً.

خرجت من غرفته ودخلت إلى غرفة والدها.. كانت تعرف أن في الغرفة بيجاما نظيفة.. وجدت بيجاما صوفية سميكة ثم عادت بها إلى غرفة رايون، وهناك بدأت بتصميم على مساعدته في ارتدائها.

حاول الاعتراض ولكن حالته جعلتها تشك في أنه يعي ما يجري..

كانت البيجاما صغيرة عليه بالطبع. مع ذلك فهي تخدم الغرض منها في تغطية كتفيه وظهره، وبدا للحظات أنه توقف عن الارتعاش.

جمعت قوارير المياه الساخنة ونزلت إلى المطبخ تملأها من جديد.. نظرت إلى ساعة المطبخ فوجدت أنها الثانية والنصف.

عندما عادت بالقوارير وجدته يرتعش من جديد. وكان واعياً أيضاً.. دست القوارير في مكانها السابق، وسرعان ما أغمض عينيه.. فأطفأت كل الأنوار إلا مصباحاً صغيراً وجلست على مقعدها.

لم يكن المقعد مريحاً ولم يساعدها روبها على الراحة.. ولكنها غفت أخيراً لأنها استعادت وعيها مجفلة عندما سمعت تمتمة رايون

المتململ في منامه.. كان قد عاد إلى التلوي. وسمعت كلمات: ليليان.. ما كان يجب أن أفعل هذا.. وكرر ذلك عدة مرات.

يجب أن تستدعي الطبيب مهما كانت النتيجة. لكن حتى الصباح ماذا ستفعل؟

ثم جاءها الحل: لو رقدت معه في السرير لأبقت الأغطية حوله ولأدفأته حرارة جسمها.. كانت قد سمعت أن الناس يفعلون هذا للحفاظ على الحرارة في الطقس البارد كثيراً.

رفعت الغطاء واندست تحته. إنه سرير واسع، وكان يستلقي في منتصفه يرتجف. واقترب منها عندما شعر بوجودها. انتظرت حتى هدأ مرة أخرى ثم شدت الأغطية إلى أذنيهما.. تدعو الله ألا يستيقظ ويغضب منها.. أمر غريب.. إنها تخاف غضبه أكثر بكثير من أي شيء آخر.. ظلت مستيقظة وقتاً طويلاً بعد هدوئه لكنها نامت في النهاية وحين فتحت عينيها مجدداً كان نور النهار يتسلل من شقوق الستائر..

أحست بأنفاس قرب عنقها، فأدارت رأسها قليلاً على الوسادة فرأت رايون الذي ما يزال نائماً، كانت أهدابه السوداء تظلل خديه.. ولكن الحرارة خفت عنه، وبدا أفضل بقليل.. استلقت لحظات تتساءل كيف ستخلص قدميها من تحت رجله. ثم أدركت أن لا رغبة لها في التحرك أبداً وهذا ما صدمها.

لكنها لم تستطع الاستسلام للخيال.. فبعيداً عن أي شيء آخر.. لو استيقظ ووجدها هنا لرماها إلى خارج السرير.

سحبت قدميها من تحت رجله ببطء وتمكنت من الخروج من السرير ثم سارت على رؤوس أصابعها وخرجت من غرفته وتوجهت إلى غرفتها. دلت الساعة إلى أن الوقت تجاوز التاسعة فشهقت دهشة، ثم سرعان ما وصلت طونيا حتى قبل أن ترتدي ثيابها.

قالت الفتاة باستغراب وهي تنظر إلى سيلا في روب النوم:

ـ هل استغرقت في النوم مدام؟

ثم رأت الموقد الفارغة من النار فاتسعت عيناها: والمسيو أيضاً؟

لكن كان على سيلا أن تحبط أملها:

- لم أستغرق في النوم.. المسيو رايون مريض.. أظنه مصاب بأنفلونزا. هل من طبيب في القرية؟

بدا الاهتمام على الفتاة:

- لا طبيب في بيلياز.. ثمة طبيب في القرية التالية.. أتريدين أن أستدعيه لك؟

- وهل تستطيعين؟ أوه طونيا، ليتك تتصلين به.. أنا لا أعرف قيادة السيارة ولا أستطيع ترك.. زوجي.

ارتدت طونيا معطفها ثانية:

- سأطلب من أخي جان أن يذهب إلى لاڤينز مدام. إنه لا يعمل اليوم ولكنه سيذهب.

- سيكون رائعاً! شكراً لك طونيا.

لوحت طونيا بيدها:

- هذا لا شيء مدام، سأعود بسرعة.

بعد ذهاب طونيا أغتسلت سيلا بسرعة وغيرت ثيابها ثم أوقدت النار في المطبخ ووضعت غلاّية الماء على الطباخ. كانت تشعل عود ثقاب حين وقف رايون مترنحاً بباب المطبخ. كان يرتدي السروال والكنزة اللتين كان يرتديهما في الليلة السابقة، بدا شارداً نحيلاً، فهبت على قدميها مسرعة.

- عليك ألا تكون خارج الفراش..

رد بفظاظة: «كان يجب أن توقظيني.. يجب أن أكون في انسيانز في الحادية عشرة، وكنت أنوي رؤية سيمون قبل هذا الوقت».

نظرت إليه غاضبة:

- تعرف أنك لن تذهب إلى أي مكان! أنت غير قادر على الوقوف على قدميك فكيف بالجلوس وراء المقود. حرارتك مرتفعة، لقد كنت مريضاً وترتجف.. وستعود إلى السرير.

نظر إليها متجهماً: «أوه.. هل سأعود؟ ومن سيجبرني على العودة؟»

هزت رأسها بعجز:

- أنا.. أوه.. رايون.. أرجوك! لا تصدقني، بل تحسس جبهتك، انظر إلى نفسك! أنت مريض.. ألا ترى هذا؟

أمسك رايون إطار الباب ليدعم نفسه:

- سأكون على ما يرام. أعطيني قرصين من الأسبرين مع قليل من الشاي.. فهذا سيدفئني.

وقفت في وجهه بصلابة، ويداها على وركيها:

- لا.. ستعود إلى السرير.. أتريد أن تنهار وراء المقود؟ هل أنت بحاجة إلى إثبات بطولتك؟

- أيتها..

وكبح شتيمة ثم حدق إليها ببرود.. ولكنها لم تتزحزح، فشد على قبضتيه.. وتمتم من بين أسنانه:

- لن تجعلي مني مريض وهم! لم ألازم الفراش يوماً منذ وصلت إلى بلياز.

صاحت: «ربما لم تمرض قط كاليوم.. أوه، رايون.. أنا أفكر فيك فقط.. ألن تفعل ما أطلبه منك؟»

نظر إلى ما وراءها وسأل:

- أين طونيا؟ ألم تصل منذ بعض الوقت؟

تنهدت سيلا: «ذهبت.. لتقضي لي حاجة.. لتحضر لي شيئاً».

ضاقت عيناه: «ما هو؟».

- وهل يهمك!

- قد يهمني.. فأنا.. أوه.. يا إلهي!

سعل بشدة فمزق السعال أعصابها.. شهق:

- حباً بالله أعطيني ما أشربه.

ترددت لحظة ثم أسرعت تصب له كوب ماءٍ كشّر وهو يتذوقه.. ولكنه ساعده وما إن أنهى الشرب حتى بدا منهكاً..

نظرت إليه سيلا ساخطة: حسناً؟ هل ستعود إلى السرير الآن؟

مرر رايون ظهر يده على جبينه ونظر بنفاد صبر إلى العرق الذي أزاله،

ثم تنهد وهز رأسه:

ـ أوه.. يا إلهي! لا أدري.. العودة إلى السرير هو استسلام للضعف.

ـ إن لم ترجع إلى السرير دخلت إلى المستشفى.

نظر إليها بعدم تصديق، ولكنه لم يعارضها:

ـ حسناً.. حسناً.. سأعود إلى السرير.. لكنني سأغادره بعد الظهر، أنفهمين؟

هزت سيلا رأسها.. ولكنها شعرت أنه متفائل كثيراً. لحقته على الدرج ثم توقفت أمام باب غرفته حين قال ساخراً:

ـ هل جئت لتلبسيني البيجاما مجدداً؟

احترقت وجنتاها وقالت تدافع عن نفسها:

ـ كنت ترتجف برداً..

جلس على حافة السرير:

ـ حقاً؟ إذن أنت من ألبسني إياها، أليس كذلك؟

ضمت يديها: أجل.. وماذا في هذا؟

نظر إليها بقلق: «لست محرجاً.. ليس لدي ما أخبئه».

ـ و.. هل سترتديها مجدداً؟

ـ إن كنت مضطراً.

أشار برأسه إلى المقعد حيث الوسادة والبطانية التي نسيت أن تأخذهما معها:

ـ هل نمت هنا؟

ـ في الواقع.. أجل. كنت قلقة عليك.. سأعد لك بعض الشاي.

وصل الطبيب كزائيه بعد حوالى ساعة.. كان رايون قد تناول بعض الشاي ورفض أي طعام.. وتناول قرصين من الأسبرين.. أوصلت الطبيب إلى غرفته وهناك عكس وجهه غضبه وإحباطه، لكن الطبيب كزائيه تجاهل مزاجه وركز على معاينته.

أعاد السماعة إلى حقيبته وهز رأسه:

ـ أنت مصاب بالأنفلونزا مسيو.. زوجتك على حق لأنها استدعتني.. في هذه الأيام بإمكان مضادات الالتهاب التخفيف من الأعراض المؤلمة.

أخرج قارورة دواء من حقيبته:

ـ لقد أحضرت هذه للطوارىء.. وأقترح عليك أن تبقى في الفراش حتى تعود حرارتك إلى طبيعتها.. وتناول قرصاً من هذه كل أربع ساعات.

لم يحتج رايون.. تقدم الطبيب إلى حيث تقف سيلا..

ـ أعتمد عليك في تناوله الأقراص مدام.. سأزوره ثانية بعد يومين أو ثلاثة وعندئذ سيكون قد تحسّن.

رافقت سيلا الرجل الصغير الجسم إلى الأسفل ثم عادت على مضض إلى غرفة رايون الذي نظر إليها، فقالت:

ـ كنت تهذي ليلة أمس.. واضطررت إلى طلبه.

سحب نفساً حاداً ثم هز رأسه:

ـ أهذي؟ أنت لا تعرفين ما هو الهذيان!.

ـ على أي حال كنت منزعجاً كثيراً. رايون، تعرف أنني على حق.. لست على ما يرام لتنهض من السرير.. بضعة أيام من الراحة وتصبح في أفضل حال.

لم يرد.

أعطته شربة ماء ليتناول قرص الدواء. لا جدوى من مجادلته.. وحده الوقت قادر على أن يبرهن من منهما على حق. على الأقل هو الآن دافىء ومستريح وبعيد عن خطر الإصابة بالتهاب رئوي الذي كانت تخاف أن يصيبه.

تخاف؟

علقت الكلمة في حلقها.. هل كانت قلقة إلى هذا الحد عليه؟ عليه أن يقلق هو على حالته الصحية.. فلماذا هذا القلق الشديد عليه؟ لماذا هذا الإحساس الذي يحرك فيها غريزة الحماية؟ هذا غباء ولا حاجة إليه أبداً

ولن يشكرها عليه.

وقت الغداء، حضرت له عجة سميكة هشة لتحاول إغراءه بتناول شيء من الطعام.. ولكنه كان يبذل جهداً في ابتلاع الطعام. بعدما أكل نصف قرص العجة دفع الطبق عنه قائلاً:

ـ النوم لا يُشعر المرء بالجوع.

التقطت الصينية:

ـ أترغب في بعض الفاكهة أو الجبن؟

لاحظت ارتجافه ولكنه حاول إخفاءه، وقال:

ـ لا.. شكراً لك، ربما بعض القهوة.

ـ طبعاً.. وقرص دواء.. هه؟

عند المساء كان مضاد الالتهاب قد بدأ يعطي مفعوله فنام رايون براحة أكبر تلك الليلة.. مع ذلك حين دخلت سيلا إلى سريرها وجدت صعوبة في النوم إذ لم تستطع صرف ذكرى ليلة أمس بسهولة.. الآن، تذكرت الكلمات التي تمتم بها هاذياً.. وتساءلت عمن تكون ليليان.. إنه اسم شائع.. لكنه ليس اسم زوجته.. أهو اسم امرأة من القرية؟ زوجة عم أبيها اسمها ليليان ولكنها امرأة عجوز.. ورايون لا يعرفها.. ربما هو يهذي باسمها..

ذكرها تفكيرها في ليليان داموراي بأنها لم ترد حتى الآن على رسالتها.. آه! ستعتبرها المرأة العجوز بلا شك فظة لأنها لم ترد على رسالتها، ولكن تصرف رايون جعلها تؤخر اتخاذ القرار. وأدركت أن عليها الآن أن تكتب لها وأن تشكرها على رسالتها.

في الصباح التالي لم تحضر طونيا إلى العمل ولكن شاباً يشبهها هو أخوها حضر وأخبرها أنها مريضة وأنها لن تأتي اليوم فخاب أمل سيلا.. لأنها بحاجة إلى أغراض كثيرة من القرية، وأملت أن تترك طونيا هنا ريثما تذهب لتشتريها فهي لن تترك رايون بمفرده.

ولكن المعضلة حُلت بوصول الأب باتريك الذي لم تره سيلا منذ الميلاد.. وقال لها عندما وصلت أنه علم بمرض رايون، فرحبت به سيلا

بلهفة.. كان الغداء تقريباً جاهزاً.. رافقته إلى الطابق العلوي وقالت له إنها ستكون سعيدة بالانضمام إليهما.

صاح القسيس بحرارة:

ـ يا صديقي.. ماذا بك؟ أنت مقعد في الفراش؟ لا أصدق هذا!

تقبل رايون كلام القسيس بإذعان وهذا ما أدهشها. رفع نفسه عن الوسادة ليقول:

ـ ولمَ لا؟ لدي ممرضة تعتني بي.

ضحك القسيس ونظر إلى سيلا:

ـ أرى ما تعني.. لكن قل بشكل جاد ما تشعر به!

ترددت سيلا قليلاً عند الباب وسألت بارتباك:

ـ أتريد مني أن أقدم الغداء هنا أبي؟

نظر القسيس متسائلاً نحو رايون الذي قال بعدما سعل:

ـ بكل تأكيد.. انضم إليّ.. هذا إن كنت مستعداً للمخاطرة بالتقاط العدوى مني.. فأنا سأقدر لك محادثتي.

ماذا يعني أنه سيقدر للقسيس محادثته؟ فهو لم يظهر رغبة في محادثتها.. أيقصد بذلك إزعاجها؟ والأدهى أنه نجح في هذا.

مكّن وجود القسيس سيلا من ترك المنزل والسير نزولاً في الطريق الملتوي إلى القرية.. ما أروع الخروج إلى الهواء النقي مجدداً.. دست يديها في جيبي معطفها الصوفي.. لم تبدُ قط بمثل هذا الجمال وهي لدخل المحل لذا استدار الشاب عن منصة البيع ليشهق:

ـ اكسوزموا مدموزيل.

إنه يتكلم الفرنسية بلكنة غريبة، الواضح أنه إنكليزي، فقالت باندفاع:

ـ أنت إنكليزي!

ـ أجل.. مدموزيل.. وأنت؟

ابتسمت: «جزئياً.. لقد ترعرعت في انكلترا.. ولكنني أعيش هنا الآن».

نظرت إلى الوراء فأدركت أن المدام كورنيت، صاحبة المتجر، تصغي إلى حديثهما باهتمام ظاهر فامتقع وجهها:

ـ . . ما ألطف سماع صوت إنكليزي مرة أخرى.

قال متجاهلاً السيدة كورنيت:

ـ لقد وصلت للتو إلى بلياز . . سأعلم في المدرسة هنا . .

هزت سيلا رأسها:

ـ سمعت أن هناك شخصاً قادماً.

ـ اسمي هاردلي . . مايسون هاردلي، ما اسمك؟

ـ دا . . أعني . . دوبار . . سيلا دوبار.

ـ مرحباً سيلا.

ـ مرحباً مايسون.

ـ أين تعيشين؟ يجب أن نلتقي مرة أخرى . . نحن غريبان في بلد غريب.

ـ هذا أمر صعب عليّ . . لكن . . بلى، سأحب محادثتك ثانية.

ـ إذن . . أين تعيشين . . هل يقيم والداك هنا في بلياز؟

لعقت شفتيها:

ـ والداي متوفيان . . وأنا متزوجة. وأعيش مع زوجي.

ـ أوه . . يا إلهي! أنا آسف! ها أنا أهذر، وأنت غير مهتمة.

ـ أوه . . لا . . أنا حقاً مهتمة . . لا . . ما أقصد . . يجب أن تأتي لتناول العشاء معنا، معي ومع زوجي.

ـ شكراً . . سأكون شاكراً كثيراً . . لدي غرفتان في القرية، يجب أن أذهب الآن فما زال منزلي غير مرتب، ويجب أن أرتبه قبل البدء بالعمل.

هزت سيلا رأسها: حظاً سعيداً . . أقصد بعملك الجديد.

ابتسم مايسون: سأحتاج إليه. أراك فيما بعد.

ـ أجل . . وداعاً.

بعدما ران الصمت نظرت إلى السيدة كورنيت التي سألتها بفضول:

الشاب . . صديقك؟

شهقت سيلا وصاحت بالإنكليزية: يا الله! . . لا!

ثم هزت رأسها وعادت تتحدث بلغة أبيها:

ـ لا مدام . . إنه مواطن من بلادي ليس إلا.

* * *

www.elromancia.com

٥ ـ خسرته مرتين

عادت طونيا إلى العمل في الصباح التالي فعرفت سيلا حتى قبل أن تخلع معطفها أنها منفعلة بسبب أمر ما.

ابتسمت لسيلا قائلة بلهفة:

ـ أوه.. مدام.. أليس من المثير أن يكون المسيو «آردلي» صديقك؟

نظرت سيلا إليها بذهول:

ـ السيد هاردلي.. صديقي؟ ما الذي تتكلمين عنه؟

نظرت طونيا إليها بخفر:

ـ لا تتظاهري أمامي مدام.. لن أقول شيئاً إن كنت لا تريدين ذلك.. لكن لا يمكنك الإنكار أن الصدفة كانت رائعة.. أليس كذلك؟

صاحت سيلا غاضبة:

ـ ليست صدفة أبداً! مسيو هاردلي ليس صديقي فلم أكن أعرفه.. التقيته للمرة الأولى بالأمس.. وإن أخبرك أحدهم عكس ذلك فهو كاذب!

ـ أوه.. لا.. مدام.. كانت مدام كورنيت تخبر أمي..

ـ.. أنني كنت أكلم السيد هاردلي في متجرها.. صحيح؟

ـ نعم مدام.

تنهدت سيلا: فهمت.. كان يجب أن أعرف.. ألا يحدث شيء في هذه القرية دون أن يعرف به الجميع؟ يا الله! كنا نتبادل التحيات كوننا غريبين التقيا في بلاد غريبة.

ـ لكنك لست غريبة مدام! أنت زوجة المسيو دوبار..

لوحت سيلا بيدها ساخطة:

ـ أعرف هذا! ولكنني ترعرعت في انكلترا حتى أتيت إلى هنا.. ومايسون هاردلي إنكليزي.. أوه.. لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

دنت منها بنفاد صبر ثم أنبأتها غريزتها بشيء ما فنظرت إلى الوراء.. كان رايون واقفاً بباب المطبخ يرتدي سروالاً ضيقاً وكنزة صوفية سميكة.. ومع أن وجهه شاحب إلا أن عينيه كانتا متوهجتين.

سألت: منذ متى وأنت واقف هنا؟ يجب ألا تخرج من الفراش.

قال بصوت بارد: «واضح أن لا..».

والتفت إلى طونيا:

ـ أليس لديك ما تفعلينه عدا الوقوف هنا لسرد الأقاويل؟

شهقت طونيا وانحنت بأدب متوتر:

ـ أنا.. مسيو. أنا.. آسفة مسيو.. عذراً.. مسيو.

ومرت به تسرع بالخروج من المطبخ.

دخل رايون وأقفل الباب وراءه.

ـ من هو مايسون هاردلي؟

لململت شجاعتها المتبعثرة، وسألت:

ـ أكان يجب أن تكلم طونيا بهذه القسوة؟

ـ أجل.. وأكرر.. من هو مايسون هاردلي؟

ـ مدرس الإنكليزية الجديد في مدرسة القرية.

عقد حاجبيه:

ـ مدرس الإنكليزية الجديد؟ وهل هو صديقك؟

ـ لا.. لا أكاد أعرفه.

ـ لكنك تعرفين اسمه.

ـ بالتأكيد أعرفه، لأنه عرفني إلى نفسه.

ـ أين التقيت به؟

ـ التقيت به صدفة في متجر القرية بعد ظهر الأمس.

ـ عندما كان يسليني الأب الطيب؟

ـ أجل . . أعتقد هذا .

ـ ألم تعرفي أنك ستلتقين به؟

نظرت إليه بتحدٍ :

ـ لا . . ! وكيف لي أن أعرف ولم يسبق لي أن التقيته قبل الأمس؟

ـ ومع ذلك تنادينه باسمه الأول . . لا؟

أخذت سيلا ترتجف . . كان بارداً ولئيماً .

ردت بحذر : «في انكلترا لا نهتم كثيراً بالرسميات . . سألني عن اسمي فذكرته له . . وقلت له أيضاً إنني متزوجة . . فهل يرضيك هذا؟»

ـ يبدو لي أنك غير متكتمة .

ـ ماذا تعني؟

ـ أولاً لم تتواني عن سرد كل تفاصيل علاقتنا إلى الخادمة . . والآن تظهرين مثل هذا الاهتمام برجل إنكليزي بحيث جعلت القرية كلها تتوقع شيئاً رومانسياً .

أحست بالغباء لأنها تكاد تبكي :

ـ هذا سخيف! أنت تبالغ .

ـ لا . . لا أبالغ . . سمعت ما قالته طونيا .

ـ وأعتقد أنك سمعته أيضاً . . لم يكن من المفترض أن تسمع . . كان عليك ملازمة الفراش .

نظر إليها بازدراء :

ـ هذا ما يبدو . . لقد نسيت كم تحب النساء الثرثرة عن شؤونهن .

التوت شفتاها :

ـ لا أفهم كيف يمكنك أن تنسى نسبة للظروف!

ارتدَّ ينظر إليها بارتباك مؤقت :

ـ أعتقد أنك تعنين شيئاً بقولك هذا؟

رفضت الانسحاب مع أن تعابيره كانت شريرة :

ـ طبعاً . . فأنا أتصور أن هاربيت تتكلم طوال الوقت عن علاقتكما؟

نظر إليها بكراهية : لقد سبق أن حذرتك من قبل سيلا . . لا تغوصي

في مياه عميقة لا تستطيعين الإبحار فيها . . أنت تتكلمين بتهور . . ومن حسن حظك أنني رجل صبور . . ولكن حتى لصبري نهاية .

صاحت غاضبة : «إذن . . توقف عن قول مثل هذه الأشياء» .

وأجهشت ببكاء عنيف جعلها تخجل من نفسها . . وغطت وجهها بيديها لئلا ترى الاشمئزاز في عينيه .

لكن ما حدث لاحقاً كان كالعادة غير متوقع . . تأوه رايون آهة مكتومة ثم قطع المسافة الفاصلة بينهما ووضع يديه على كتفيها يشدها إليه . . أحست بخدها على قماش الكنزة الخشن . . أخذ يواسيها معتذراً لأنه جعلها تبكي . أخيراً قال :

ـ إذن . . لن نضيف كلمة أخرى على الموضوع، ولكنني أقترح عليك أن تفكري في المستقبل بالتصرف بحذر لئلا يفسره الناس على هواهم .

جففت عينيها بظاهر يدها . . ثم لاحظت قطرات عرق على جبينه، فصاحت :

ـ ما تزال حرارتك مرتفعة، لماذا نزلت إلى هنا؟ لماذا ارتديت ملابسك؟

زفر أنفاسه متنهداً :

ـ سيلا . . هناك ما يجب أن أتمّه . .

ـ ليس الآن بكل تأكيد . . ألا يمكن لهذا الرجل سيمون روكير أن يرعى شؤونك حتى تستعيد عافيتك؟

ـ سيمون في القرية . . فكيف أكلمه؟

ـ سأرسل في طلبه ليأتي إلى هنا . . سأذهب أنا . . أو أرسل طونيا . .

قاطعها بثبات : «سأقود السيارة إلى القرية بنفسي لأراه . . لن أتأخر . .»

ـ غير ممكن . . رايون، أرجوك! لا يمكنك الخروج في هذا الطقس الممطر! اسمح لطونيا بالذهاب إلى سيمون روكير حين تذهب إلى منزلها ساعة الغداء .

نظر إليها متجهماً :

ـ ماذا تحاولين أن تفعليه بي؟ أن تجعليني ضعيفاً؟ لم يسبق أن حال المطر بيني وبين أي شيء.

ترددت قليلاً ثم قالت:

ـ لكن.. لم يكن لديك زوجة تهتم بك من قبل!

ضاقت عيناه: وهل لدي زوجة الآن؟ ألدي من يهتم بي؟

تورد وجهها وقالت عن غير ثبات:

ـ أنا.. قد أهتم بأي كان يبدو لي مصمماً على الإضرار بصحته.

ـ هكذا إذن؟

قطع الغرفة ليرتدي معطفه الجلدي فنظرت إليه بهلع:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ تعرفين إلى أين.. أعدي لي القهوة.. سأعود بعد ربع ساعة.

ـ لكن.. لكن.. لا تستطيع..

لكنه استطاع.. ورحل.

كانت على وشك ارتداء ملابسها والخروج للبحث عنه بعد ساعة من رحيله ولكن في هذا الوقت ولجت الستايشن السوداء إلى الباحة، وما هي إلا ثوانٍ حتى دخل رايون إلى المطبخ ينفض قطرات المطر عن شعره الكث..

سألته: «أين كنت طوال الوقت؟»

ـ تطرحين الكثير من الأسئلة التي لا ضرورة لها.. لقد ذهبت إلى منزل سيمون روكير.. كما اقترحت.

ـ لم أقترح ذهابك إلى هناك بل أنت من قررت ذلك!

ـ حسناً إذن.. ذهبت إلى منزل سيمون روكير كما قررت أنا.

وجلس على المقعد الخشبي قرب النار ومد يديه إلى الدفء.

اختفى غضب سيلا لأن تصرفه المشبع بالهزيمة أثر فيها كثيراً. تقدمت إليه ووضعت يداً على كتفيه، وأحست بعضلاته تتوتر تحت يدها.. فتمتمت:

ـ أنا آسفة.. آسفة على سلاطة لساني لكنني قلقة عليك.

رفع إليها عينين مرهقتين:

ـ أيرضيك أن تعرفي أنني أحس وكأنني أموت؟

ـ لا.. لا.. بالتأكيد لن يرضيني هذا أبداً.. كيف تشعر؟

ـ بشكل رهيب!

سحبت يدها تشبك أصابعها معاً:

ـ ماذا تنوي أن تفعل الآن؟

ـ سأعود إلى السرير.. كما يهوى الأقوياء، أليس هذا ما يقال؟

بعد هذه الحادثة وجدته مريضاً مطواعاً بين يديها، فلم يرجع إلى لومها على حالته.. بل على العكس كان يجعلها تشعر بسروره عندما يراها تدخل إلى غرفته.. وقد حملت عدة مرات وجبتها إلى غرفته لتشاركه الطعام، وكانت طونيا تراقب تطور هذه العلاقة برضى لم تخفه، حتى اضطرت سيلا إلى أن تقول لها أن ظنها في غير محله.

لم تقتنع طونيا:

ـ لماذا الإنكار مدام؟ أن تلاحظي مدى الرضى الذي يمكن لزوجك أن يوفره لامرأة لأمر عليك عدم الخجل منه.

توردت وجنتا سيلا:

ـ لا بد أنك لاحظت الكثير، طونيا؟ وأظنك تخلطين بين الحب.. والرغبة!

ـ بدون الرغبة.. ما هو الحب؟

صاحت سيلا: أوه.. اذهبي من هنا وتابعي عملك! أتوقع منك أن تنهي كل واجباتك قبل أن تذهبي.

ـ أجل مدام.

مع حلول رأس السنة الجديدة تمكن رايون من النزول إلى مكتبه.. ومع أنه ظل يتصرف بتساهل مع سيلا.. إلا أن الأمر لم يعد كما كان.. فلم يعودا يتأخران وقت الغداء فيتحدثا في مواضيع عادية كالحديث عن الكتب والسينما، ومقارنة ما أحباه وما لم يحباه في كل شيء. لقد غيرت عودته إلى طبيعته كل هذا.. ولم تعرف الكثير عن ماضيه لكنها أحست

أنهما قد بدآ يتعارفان عقلياً عندما عاد يخرج في الأمسيات مرة أخرى، فتمنت لو تموت.. وأحياناً كانت تتساءل عما إذا كانت قد تخيلت تلك الليلة التي قضتها في فراشه.

بعد ظهر أحد الأيام في نهاية شهر كانون الثاني، كانت سيلا تزور القرية لشراء التموين حينما شاهدت سيارة رايون متوقفة في باحة المرآب.. لم تحتج إلى قراءة اللائحة التي تقول: «محطة خدمة سيارات.. ج.. بينيلان» لتعرف لمن هو المرآب.. وكأنما للتأكيد ظهرت هاربيت من غرفة مكتب صغير في تلك اللحظة بالذات، يرافقها رايون وشاب آخر.

آخر ما كانت تريده هو أن يراها تراقب حركاته.. ومع أن كل من يراها سيستغرب عدم توقفها لمحادثة زوجها، إلا أنها سارعت لفتح باب المحل ودست نفسها بين الصناديق والبضائع.. من حسن الحظ أن السيدة كورنيت كانت خلف المحل وعندما عادت لم تنتبه لما كان يجري في الشارع.

لكن ما إن عادت سيراً على القدمين إلى المنزل حتى وجدت نفسها تمتلىء غيظاً. كيف يجرؤ رايون على استعراض علاقته مع هاربيت بينيلان أمام مرأى الجميع؟ كيف له أن يذلها هكذا خاصة بعد الطريقة التي تصرف بها بشأن مايسون هاردلي؟

كانت تنوي أن تطهو للعشاء دجاجاً بالكاري تصفه فوق الأرز، يتبعه حلوى الفريز. ولكنها كانت غاضبة من رايون غضباً شديداً جعلها تكتفي بما هو أقل تعباً مثل الأومليت والبطاطا المقلية. أما الحلوى فاستعاضت عنها بجبن وبسكويت.

عندما جلس إلى المائدة بدا غارقاً بالتفكير ولكنها لم تدر كيف استطاعت لجم لسانها.

ما إن حل وقت القهوة حتى كانت سيلا فعلاً ساخطة.. فوضعت له قهوته أمامه بقوة فانسكبت في الصحن، ولكنها بهذا نجحت في إثارة اهتمامه إذ سأل: هل من خطب؟

رمت الصحون المتسخة في المغسلة وقالت بحدة: وماذا قد يكون؟

ـ هذا ما أريد أن أعرفه. كانت الوجبة لذيذة.. أهذا ما تريدين أن أقول؟

ـ حقاً؟ ظننتها وجبة مملة كئيبة! كنت أنوي طهو دجاج مع كاري ولكن بعد ذهابي إلى القرية بعد الظهر قررت عدم إزعاج نفسي.

ـ لا أتوقع منك إزعاج نفسك بسببي سيلا.

ـ ما أشد سروري!

كانت سخريتها واضحة.. فوقف رايون يشعل سيكاراً.

ـ إذا كان هناك ما يشغل بالك سيلا.. فهيا قولي ما هو.. إن هذه التهجمات الكلامية تصرف طفولي.

ليس هناك من قول أشد إحراجاً من هذا.

ـ أوه.. حقاً! كم هذا مرهق لأعصابك! لكنني على كل حال طفلة! ألست طفلة؟ مراهقة، متعبة، مملة! تتجنب رفقتها في كل مناسبة؟

سحب رايون نفساً عميقاً من سيكاره ثم تفرس بطرفه المشتعل.. وقال بفظاظة:

ـ أظننت أنني لم أرك بعد ظهر اليوم وأنت تسرعين في دخول متجر السيدة كورنيت وكأنك أرنب مذعورة؟

فغرت سيلا فاها ذهولاً:

ـ أنت.. رأيت.. رأيتني؟

ـ طبعاً.

ـ وطبعاً لم تقل شيئاً إلى.. إلى رفيقتك!

ـ أكنت تريدين أن أقول لها شيئاً؟ أتريدين أن أقول لها: أوه.. انظري هاربيت.. ها هي زوجتي تتظاهر أنها لم ترني!.. لا.. لا أظن هذا.

سرق قوله من سيلا زمام المبادرة فأحنت كتفيها.

ـ لا تتظاهر أنك توقعت أن أراك! أنا مضطرة للسير إلى القرية عندما أريد شيئاً أما سيدتك العزيزة فتستخدمك سائقاً لها.

التوى فمه: أنت تغارين.. كم ستتسلى هاربيت لو عرفت هذا.

ارتفع رأس سيلا بحدة واعترضت بغضب:

ـ أنا لا أغار! وإياك أن تقول لها!

ـ إذن توقفي عن التصرف وكأنك تمتلكينني..

ارتدت سيلا نحو المغسلة وتمتمت بصوت غير مسموع تقريباً:

ـ إذهب إلى الجحيم!

***

في الأيام التالية تجنبت سيلا محادثة زوجها. تصرفت بشكل طبيعي فقامت بالأعمال المنزلية وأعدت الطعام، ولكنها لم تقل له شيئاً عدا الكلمات العادية. ولكن رايون اختار أن يتجاهل كل ذلك ويبدو أنه افترض أنها عاجلاً أم آجلاً سترضى. أما طونيا فلم تترك التعليق على الخطوط السوداء البادية حول عيني سيلا.

ـ أظنك غير سعيدة مدام.. هل كان السيد رايون غير لطيف معك؟

لم تتحمل الشفقة في صوت الفتاة:

ـ لا تكوني سخيفة.. اطوي الشراشف بدقة! أنت تجعدينها.

ـ لا تردي.. ولكنني أعرف مدام.. لقد لاحظت الإشراق ينطفىء من عينيك.

وضعت سيلا الشرشف المطوي فوق النشّافة:

ـ أنت تتوهمين طونيا.. كيف حال أخوك هذه الأيام؟

ـ جان بخير.. سيتزوج قريباً.

ـ سيتزوج.. لكنه صغير.

ـ إنه في الثامنة عشر مدام، وهو يصلح أن يكون أباً للطفل الذي تحمله كوزيت بازيل.

حبست سيلا أنفاسها:

ـ أوه! أوه.. فهمت.. وكم عمر.. كوزيت؟

ـ سبعة عشر عاماً مدام.. لا تشعري بالأسى عليها، فهذا ما كانت

تريده من أخي وهي في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة.

ارتدت سيلا عنها.. فما زالت غير قادرة على التغلب على الحرج الذي يولده الحديث عن مثل هذه الأشياء «الحميمة»..

مع ذلك عرفت أن الحديث عن الأخ ألهى الفتاة عن الاهتمام بشؤون سيلا.. ولكن بعد يومين كان لها أسباب وجيهة لتشك في الأمر.

كان يوماً ممطراً آخر فيه أوصل رايون طونيا إلى القرية وقت الغداء لئلا يبللها المطر.. بعد الغداء قال أن عليه الذهاب إلى انسيانز، وبما أنه لم يدعُ سيلا للذهاب معه فقد قضت عصراً بائساً.. عكس الطقس مزاجها المتكدر، وكم كانت مسرورة حين طرق الباب الأمامي الذي يواجه الوادي، ومع أنها لم تكن تحب فتح بابها للغرباء إلا أن فضولها تغلب على حذرها.

كان الطارق مايسون هاردلي الذي وقف مختبئاً من المطر تحت الخيمة.. كان معطفه يقطر مطراً والواضح أنه قطع المسافة من القرية إلى هنا سيراً على قدميه.. ابتعدت سيلا عن الباب آلياً ودعته ليدخل.

ـ أشكر الله لأنني وصلت إلى المنزل الصحيح! يا له من يوم!

ـ أجل.. أنا.. ألن تأتي إلى المطبخ؟ إنه دافىء.

ـ شكراً.

لحق مايسون بها وهي تتساءل عما سيقوله رايون لو عرف بزيارته.. ثم هزت رأسها بنفاد صبر. إنه لا يسيطر على كل تحركاتها.. وإن اختارت استقبال مايسون فعليه عدم الاعتراض.

مد مايسون يديه إلى النار:

ـ همم.. هذا أفضل بكثير.. هل أدهشتك رؤيتي؟

ـ صدمت وصف أكثر دقة.. كيف وجدت العنوان؟

ـ كنت أعرفه منذ زمن فاسمك غير مجهول في القرية.. ولكنني كنت بحاجة إلى الشجاعة لأزورك دون دعوة.

تنهدت سيلا:

ـ أنا آسفة.. كنت أنوي أن أدعوك إلى وجبة طعام ولكن زوجي كان

مريضاً و.. لم يكن لدي الوقت

ـ لا بأس.. أعرف كيف هي الأمور.. اسمعي.. ألن تجلسي؟ لأتمكن أنا من الجلوس.

هزت رأسها:

ـ أوه.. بلى.. أرجوك اجلس.. آسفة إن بدوت لك مضيفة سيئة.. لكننا لا نستقبل الكثير من الزوار.

ـ هذا ما سمعته.

عبست سيلا: وممن سمعت؟

بدا عليه الحرج:

ـ أوه.. في القرية.. اسمعي.. اجلسي فأنت توترين أعصابي.

ـ سأصنع القهوة..

ابتسم مصرّاً: فيما بعد.

جلست قرب النار وجلس مايسون قبالتها، ثم قال:

ـ والآن.. هذا أفضل.. أليس كذلك؟

نظرت بنفاد صبر إلى قميصها وجينزها.. لو كانت تعرف بأمر زيارته لارتدت ما هو أكثر أنوثة.. فليس لديها مناسبات كثيرة لتتأنق.. حوّلت أفكارها إلى أفكار أقل إحباطاً، وقالت:

ـ وكيف كان استقرارك في بيلياز؟ هل أعجبك العمل في المدرسة؟

ـ لا بأس به، وسيكون أفضل مع قدوم الصيف... غرفتاي الآن باردتان ورطبتان وفي المساء لا أجد ما أفعله، فأنا لا أملك وسيلة نقل وبيلياز لا تقدم شيئاً من التسلية.

هزت سيلا رأسها: «يبتدع الناس هنا تسالي خاصة بهم».

ـ أتشيرين إلى عدد الأطفال الموجودين هنا؟

ضحكت:

ـ لا.. بالتأكيد لا.. أعني أنهم يحيكون، يخيطون، ويقرؤون، ويتحدثون.. ألا تقرأ؟

ـ بلى أقرأ، ولولا القراءة لجننت! لا.. لكن ألا تتمنين وجود سينما

أو دار للموسيقى تستمعين إليها؟ ماذا كنت تفعلين في انكلترا؟

ـ كنت أعمل في مكتبة.

ـ في لندن؟

ـ لا.. بل في بلدة صغيرة على الساحل الجنوبي، لاينبورث.

ـ أعرفها.. لا تبعد كثيراً عن ساوثمبتون، أليس كذلك؟ وقريبة من لندن بحيث تسمح للمرء بالاستفادة من فوائد الحياة المدينية.

ـ لم أحب لندن كثيراً.. ولأنني أحببت لاينبورث لم أكن أهتم بالخروج كثيراً.

بدت عليه الحيرة: «والآن تعيشين هنا.. في بلياز.. وهذا تحول كبير».

نظرت إلى يديها: تعجبني بيلياز.

ـ حقاً؟ كيف التقيت بزوجك؟

تورد وجه سيلا: «عرفني إليه والدي».

ـ والدك؟ آه.. أجل. أذكر.. والدك متوفّى.

وقفت سيلا:

ـ أجل، أتود القهوة الآن؟

هز رأسه إذ لم يخدعه تحركها المفاجىء.

ـ زوجك أكبر منك.. أليس كذلك؟

كانت سيلا تملأ غلاّية القهوة فتظاهرت أنها لم تسمعه.. لكنه كرر سؤاله فاضطرت إلى الموافقة، فقال:

ـ لم أقابله بل سمعت به.

سكبت الحليب في الإبريق الصغير.. وسألت:

ـ أتريد السكر سيد هاردلي؟

ـ اسمي مايسون أجل أريد السكر، ما بالك سيلا؟ ألا تحبين التحدث عن زوجك؟

شهقت سيلا:

ـ إن في هذا القول وقاحة!

ـ مع ذلك فهو صحيح.. يجب أن أخبرك أن غرفتيّ في القرية هما ضمن منزل آل بونتيه.. جانيت بونتيه، هي عمة طونيا التي تعمل عندك.

فجأة اتضح كل شيء فسألت غاضبة:

ـ هكذا إذن.. وأعتقد أنك كنت تستمع إلى أقاويل طونيا؟

تنهد ووقف يتقدم منها:

ـ الأقاويل لا تحتاج إلى من يستمع إليها.. من المعروف بين الناس أنك ورايون دوبار غير سعيدين معاً.

احترقت وجنتاها:

ـ أوه.. حقاً؟ حسناً.. أخشى أن يكون هذا المعروف بين الناس خطأ فادحاً فأنا ورايون سعيدان. زواجنا أنجح ما يكون.

هز رأسه:

ـ حقاً؟ ما هذا الذي سمعته؟

ردت تصفق الفناجين فوق الصحون:

ـ لا يهمني أبداً ما سمعت!

أدرك مايسون أنه تمادى كثيراً فحاول تغيير دفة الموضوع وسرعان ما جعلها تضحك على صعوبات تعليم صف من الأولاد المتململين خاصة في أفعال اللغة الإنكليزية.

شعرت بالأسف عندما أزف موعد رحيله.. فمنذ زمن طويل لم تتحدث إلى أحد حديثاً حقيقياً.. وعندما سأل عما إذا كان بالإمكان أن يأتي مرة أخرى وافقت.. فيما كان يغادر أمسكت ذراعه قائلة باندفاع متهور:

ـ أرجوك.. لا تقل لطونيا انك كنت هنا.. أتسمح؟ أعني.. أكره أن تأخذ فكرة خاطئة عن الأمر.

هز مايسون رأسه تفهماً: «ولماذا أخبرها فأنا لا أكاد أعرفها».

في الأيام القليلة التالية ارتفعت معنويات سيلا مجدداً. فزيارة مايسون التالية كانت أمراً انتظرته بلهفة، أمراً كانت تفكر فيه حين يدفن رايون وجهه في دفاتر الحسابات ويكلمها بكلمات مختصرة.. لم تقل لطونيا

شيئاً عن مشاعرها وفكرت في صرف الفتاة من الخدمة، ولكن هذا سيتطلب تفسيراً سيشمل مايسون هاردلي، وهذا ما لا تريد الإفصاح عنه.. فكان أن سارت الأمور على حالها ولكنها كانت تجد طونيا في بعض الأحيان تنظر إليها متفرسة.

يوم الثلاثاء التالي قال لها رايون إنه مسافر إلى ليون في اليوم التالي.. واقترح أن ترافقه إذا أحبت. وبما أنه أول اقتراح ودي منذ شجارها معه بشأن هاربيت بينيلان فقد وافقت سيلا.. ولم يعد هناك أية أهمية لفكرة رؤية مايسون هاردلي أمام توقع قضاء عدة ساعات في صحبة رايون.

لكنها صباح الأربعاء استيقظت متوعكة، وكان رأسها يؤلمها فعرفت أنها ليست على ما يرام للذهاب إلى أي مكان.

سرعان ما تعاطف رايون معها.. تحسس جبهتها بأصابعه السمراء الباردة وضم أصابعه إلى مؤخرة عنقها، ونظر إليها بريبة.. أحست سيلا برغبة جامحة في الاقتراب منه والتوسل إليه حتى يبقى معها، لكنها أدركت أن فعلها هذا قد يستدعي ازدراءه.. هكذا تحملت لطفه بصمت ونجحت في إثارة عطفه.

ـ أتفضلين عدم الذهاب اليوم؟

نظرت إليه بخوف:

ـ وإذا.. إذا قلت أجل؟

رد فوراً:

ـ لن أذهب.. أنت زوجتي واهتممت بي في مرضي لذا لن أستطيع أن أفعل أقل من هذا لك.

انسحبت عنه فجأة:

ـ أوه.. هكذا إذن..

ما أشد ما كانت غبية عندما توقعت شيئاً آخر.

ـ إذن.. لا، اذهب، سأكون على ما يرام.. قد أقضي الصباح على الأرجح في السرير وسأرى كيف سأصبح بعد الظهر.. إنه صداع ليس إلا.

نظر إليها نافد الصبر.

ـ بمَ أخطأت؟

هزت رأسها:

ـ لم تخطىء بشيء. أنا.. متوترة ليس إلا. اذهب.. ستتأخر.

تأوه آهة مكبوتة، نصفها احتجاج ونصفها يأس، ثم تقدم إليها وأحنى رأسه ليعانقها.. جعله التلامس يمسك خصرها، فشدها إليه ثم تأرجحت أحاسيسها وانقطعت أنفاسها. عندما تركها كان شاحباً بمقدار شحوبها وفي عينيه وميض الغضب.. لم يقل كلمة بل اختطف معطفه الجلدي وخرج.

لأنه كان من المتوقع أن تذهب سيلا مع رايون إلى ليون لم تأت طونيا ذلك الصباح.. ولكن سيلا لم تشعر بخيبة أمل.. فآخر ما تحتاج إليه الآن هو أن ترمقها عينا طونيا الخبيرتان.. ومع انخفاض حرارة دمها المندفع في شرايينها هدأت أحاسيسها أيضاً فارتاعت لما حدث.. شعرت بأنها لو لم تدفعه إلى هذا لما فعل ما فعل.. وأنه كذلك اليوم في الميلاد يلومها على فقده السيطرة على نفسه.. إن المخاوف التي تشعر بها الآن منه تنبع من معرفة داخلية للسلطة التي يستطيع فرضها عليها.. وبدأت تفهم أن هناك أسلحة أكثر فتكاً من القوى الجسدية.

أخيراً دفعها رأسها الذي يضج ألماً إلى السرير وأمنت لها عدة أقراص أسبرين عدة ساعات من اللاوعي.. وكانت تغط في نوم عميق حين قُرع الباب الأمامي.

نظرت إلى الساعة عدة دقائق قبل أن تتركز أمام عينيها.. إنها الساعة الثانية.. وفي وضح النهار!

ثم تذكرت.. إنها الثانية بعد الظهر وثمة من يقرع الباب.. هل عاد رايون فاكتشف أنه نسي مفاتيح المنزل؟ هل يقرع الباب الأمامي لأنه يعرف أنها تنام في الغرفة الأمامية من الطابق العلوي أم لعله شخص آخر؟

نهضت من السرير متنهدة فدست روبها وهي تتقدم إلى النافذة.. فتحتها ونظرت إلى الأسفل فواجهتها نظرة مايسون هاردلي المرحة:

ـ آه.. مرحباً!

ـ جيد جداً.. ألم تخرجي من السرير حتى الآن؟ ما هذه بعادة الزوجة الفلاحة العاملة!

ابتسمت سيلا. كان صداعها قد تحسن كثيراً على الرغم من استيقاظها المزعج.

ـ لم أكن بخير هذا الصباح.. كنت أعاني من صداع وكنت أستريح.

ـ أوه! آسف.. وكيف تشعرين الآن؟

ـ أفضل بكثير.. شكراً لك.. أتريد الانتظار حتى أرتدي ثيابي؟ أم لعلك على عجلة من أمرك؟

ـ لست على عجلة من أمري. لدي كل فترة العصر.. لا تسرعي أبداً.

سحبت سيلا رأسها عن النافذة بسرعة وأقفلتها. ولم يطل بها الوقت لتغسل وجهها ويديها وترتدي قميصاً عاجي اللون وتنورة حمراء مثناة طبقات. وكانت تمرر الفرشاة في شعرها حين فتحت له الباب ودعته إلى الدخول مقطوعة الأنفاس فنظر إليها بإعجاب، وقال معلقاً:

ـ جيد.. لديك ساقان جذابتان. كنت بدأت أتساءل عن هذا.. فلم أرك حتى الآن إلا بالجينز.

تورد وجه سيلا:

ـ ألم يقل لك أحد أن من الفظاظة التلفظ بملاحظات شخصية؟.. تعال إلى المطبخ لأعدّ لك القهوة.. أنا جائعة، لم آكل شيئاً اليوم.

لحق بها إلى المطبخ ثم توقف ليشمّ الهواء:

ـ همم.. ثمة ما رائحته لذيذة.

أشارت برأسها إلى الطبّاخ:

ـ إنه حساء الدجاج الذي طهوته ليلة أمس.. أتريد بعضاً منه؟

تقدم إلى الطبّاخ ورفع الغطاء عن وعاء الطبخ:

ـ جيد جداً.. هذا إنجاز رائع من شابة صغيرة!

ـ لا تسخر مني هكذا.. وتوقف عن قول «جيد جداً». إنها تثير أعصابي.. أتريد بعض الحساء أم لا؟

ـ فلنقل يجب ألا أرفض.

هزت سيلا رأسها بمرح وأشعلت النار تحت الوعاء.. ثم ملأت غلاية الماء ووضعتها على نار أخرى لتغلي.. وفيما كانت تحضّر الملاعق والصحون وتقطع الخبز الفرنسي الطويل، جلس مايسون على حافة الطاولة يراقبها..

أخيراً قال:

ـ إذن كيف تسير الأمور؟

شغلت سيلا نفسها بالطباخ لئلا يرى وجهها وأجابت بسرعة:

ـ رائع.. وكيف الأمور معك؟

ـ غير سيئة. أنا مسافر في نهاية الأسبوع في الواقع.

ـ مسافر؟ عائد إلى انكلترا؟

ضحك:

ـ لا.. إلى الألب.. للتزلج.

ثار اهتمام سيلا:

ـ التزلج؟ ذهبت للتزلج مرة منذ سنوات بعيدة مع زملائي في المدرسة.

قال مازحاً: ليس منذ سنوات بعيدة بكل تأكيد.

ـ هل تزلجت من ذي قبل؟

ـ أجل مرتين.

سكبت مغرفتين من الحساء في الصحنين:

ـ لا أصدقك.. أعتقد أنك تتواضع.

جر كرسياً وجلس ليبدأ باحتساء الحساء:

ـ لا تصدقي.. همم.. هذا ممتاز! كانت أمي تطهو حساءً لذيذاً كهذا.

ـ كانت؟

ـ أجل.. إنها متوفاة الآن. ووالدي تزوج مرة أخرى منذ سنتين.

ـ أنا آسفة.

ـ لا تأسفي.. كانت مصابة بالسرطان.. وكان موتها رحمة لها.. كان والدي في الخمسين حين تزوج مرة أخرى. إنه صغير نسبياً ليقضي بقية عمره بمفرده.

ـ أنت متفهم.. لا يشعر كل الأولاد على هذا النحو نحو آبائهم بل يميلون إلى الغيرة من الدخيل.

رفع كتفيه بعدم اكتراث:

ـ حقاً؟ هل كنت هكذا؟

جلست قبالته: أنا؟

ـ أجل.. أنت.. سمعت أن والديك تطلقا في صغرك.

نظرت إلى طبقها:

ـ أجل.. لكن لم يتزوج أي منهما ثانية.

ـ حقاً؟

ـ لا.. كان والدي يعاني من قلبه.. و.. وأمي.. حسناً.. لا أظنها ممن كان يحب الحياة الزوجية.

ـ لماذا تقولين هذا؟

ـ لا أعرف.. فهي رفضت العودة إلى فرنسا عندما اضطر والدي للعودة إلى هنا ليتسلم إدارة أملاكه..

ـ أجل.. سمعت هذه القصة.

ـ ممن؟

ـ أوه.. ليس من طونيا هذه المرة.. بل من عمتها. أردت معرفة ما كانت ردة فعلك حينما اكتشفت أن رايون دوبار ورث نصف أملاك والدك.

حبست أنفاسها ودفعت طعامها الذي لم تمسه إذ انفعلت غاضبة، وقالت:

ـ لست أدري ما شأنك بهذا كله؟

تناهى إليهما صوت أجش عن الباب:

ـ ولا أنا كذلك.

رفعت سيلا بصرها مذهولة فرأت زوجها. تمتمت بالإنكليزية بصوت

هامس:

ـ رايون.. ظننتك في ليون.

دنامنهما: مستحيل!

وقف مايسون فظهر بشكل واضح الفرق الشاسع بين بنيتيهما الجسدية..

وجه رايون كلامه إليه:

ـ أنت معلم الإنكليزية في مدرسة القرية.. أليس كذلك؟ هل لي أن أسألك ما الذي تفعله هنا؟

لعق مايسون شفتين جافتين ونظر إلى سيلا بعجز فسارعت تقول:

ـ إنه.. لم يعرف أنني مريضة فجاء ليراني.

ـ بناء على دعوتك؟

ـ تقريباً!

ـ كيف؟

قاطعهما مايسون بنفاد صبر:

ـ أوه.. هيا الآن.. لا داعي للعب دور الأب الصعب المراس مسيو.. أنا وسيلا صديقان ليس إلا.. ولا ضرر من صداقتنا.

التوت شفتا رايون وارتدّ إلى زوجته:

ـ لم أقل هذا.. أنت أفضل حالاً الآن.. أليس كذلك؟

ـ أفضل بكثير.

رد بالفرنسية بغير اهتمام: «جيد».

ـ من أين أتيت؟ أعني أنت لا تستخدم.. الباب الآخر.

اعترف ببرود:

ـ أنا نادراً ما أستخدمه.. ولكن هل ستنكرين عليّ الحق باستخدامه؟

ـ بالطبع لا.. أنا.. نحن.. كنا نتناول الحساء.. أترغب فيه؟

نظر إليهما بكراهية:

ـ لا.. ميرسي.

فك معطفه الجلدي وحرك عضلات كتفيه، وكأن الرحلة أنعبته أكثر

مما توقع.. ثم قال:

ـ أنا سعيد لأنك لم.. كيف أقولها؟ لم تكوني وحيدة في غيابي؟ لدي عمل في القرية.. أعذراني.

وارتد عائداً إلى الردهة. لم تنتظر سيلا أكثر من ثوان حتى قفزت راكضة من المطبخ إلى الردهة: رايون؟

كان يفتح الباب الأمامي ولم تكن تعابير وجهه مشجعة: «نعم؟»

قالت بالفرنسية:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ لا شأن لك بهذا.. مع أنني قلت لك.. إلى القرية.

وضعت يدها على ذراعه:

ـ رايون.. أرجوك.. لا تذهب هكذا..

ـ هكذا كيف؟ لقد اطمأننت إلى أن هناك من يعتني بك.. لقد تخليت عن واجباتي كزوج.

ـ رايون.. أنت لا تفهم..

ـ ما الذي لا أفهمه؟ أنك كنت تواسين نفسك مع شاب إنكليزي؟ لكنك مخطئة.. أفهمك.

ـ أنا ومايسون لا نعرف بعضنا جيداً.

الواضح أنه لم يصدقها:

ـ لا؟ مع ذلك فأنتما تتخاطبان بالأسماء الأولى.. وهو يعاملك وكأنه يعرفك معرفة وثيقة.

ـ إنها طريقته وهي لا تعني شيئاً.. أظنه يشعر بالمسؤولية تجاهي.

ـ مسؤولية.. تجاهك!

ـ أوه.. تتعمد إساءة الفهم.. يعتقد أنني إنكليزية..

ـ لكنك لست إنكليزية.

ـ أعرف.. لكن.. أوه.. لماذا تفعل هذا؟

ـ أحاول كبت غضبي لئلا أعود إلى هناك وأوسع ذلك الشاب ضرباً لم يذق مثله في حياته!

حركت رأسها من جانب إلى آخر:

ـ ليتك لا تكون.. هكذا..

ـ قاسياً؟ جلفاً؟ بربرياً؟ أجل، أنا كل هذا..

خطا إلى الخارج:

ـ عودي واهتمي بضيفك سيلا.. لدي ما هو أفضل من الوقوف لأتشاجر معك.. لا تزعجي نفسك بانتظاري.. قد أتأخر كثيراً.. ربما تمكنت من إقناع.. صديقك.. بالبقاء للعشاء. هه؟

ارتد مبتعداً ليدور حول المنزل إلى حيث أوقف سيارته على الطريق.

* * *

٦ ـ لحظات مجنونة

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما عاد رايون إلى المنزل.. لكن سيلا لم تكن في فراشها فمع أنها خلعت ملابسها باكراً وارتدت روب النوم إلا أنها عرفت أنها لن تستطيع النوم حتى تتأكد من عودته إلى المنزل سالماً.. كما عللت النفس بأنه قد يرغب في بعض الطعام أو في شراب ساخن.. وهذا ما قد يمنحها فرصة لتشرح له سبب وجود مايسون بعد الظهر.

كانت تجلس على ضوء القمر حين دخل فلم يلاحظ وجودها فوراً.. خلع معطفه وفك أزرار قميصه ثم رمى ربطة عنقه على ظهر كرسي.. أخيراً أضاء المصباح ونظر إليها بشيء من الكراهية..

سأل بغضب:

ـ ماذا تفعلين هنا؟ ألم أطلب منك عدم انتظاري؟

رأت خطوطاً عميقة على جانبي فمه.. شعره الأشعث شاهد على عدد المرات التي مرر بها أصابعه فيه.. أم لعلها واهمة؟ تقلصت معدتها عندما فكرت أن امرأة أخرى قد تكون المسؤولة عن مظهره المتعب الأشعث.

قالت بحذر: «أردت مكالمتك».

ـ مكالمتي؟ في مثل هذا الوقت من الليل؟ لا شيء يقال الآن.

هبت على قدميها تلف روبها حولها:

ـ بلى.. هناك، رايون! لست متورطة.. جسدياً.. مع مايسون هاردلي.

ـ حقاً؟

تنهدت: «لا.. فهل تصدقني؟»

ـ لا.

ـ أوه.. رايون..

ـ لا تمارسي عليّ «أوه رايون» هذه! لقد سمعت أشياء كثيرة عنك هذا المساء.. يا زوجتي العزيزة الصغيرة.. التي تسلي رجالاً آخرين في غياب زوجها!

ـ هذا غير صحيح!

ـ بل هو صحيح.. لقد ضبطتك بنفسي بعد ظهر اليوم.. وأنا الذي لم أستطع الذهاب إلى ليون بسبب قلقي عليك!

لوى فمه بسخرية وهز رأسه:

ـ وصلت إلى أنسيانز، ثم اتصلت من هناك معتذراً عن اللقاء الذي كان يفترض بي أن أحضره.

ـ أوه.. رايون..

قلدها باشمئزاز:

ـ أوه.. رايون.. ما أشد ما كنت غبياً!

ـ رايون.. لم أكن أعرف أن مايسون قادم.

ـ بل كان عندك فكرة عن الأمر وليست المرة الأولى التي يزورك.. أليس كذلك؟

ترددت: «زارني مرة فقط».

ظنها تكذب: مرة فقط؟

ـ ولماذا أكذب؟ إنها الحقيقة، صدقاً رايون.. على أي حال، ما أفعله لا يعنيك أبداً!

تقدم خطوات نحوها: ماذا تقصدين؟

تورد وجهها ولكنها ثبتت في مكانها:

ـ أعني ما أقوله.. أنت لا تهتم بما أفعل ولا تعتبرني إلا جزءاً من أملاكك وتشعر أن لك الحق في التفكير نيابة عني.

ضاقت عيناه: «أهذا ما تظنينه؟»

ـ أجل.. فمن غير المسموح أن أسألك عن تحركاتك.. صحيح؟

ـ أية تحركات تشيرين إليها؟

لو كانت واعية لمزاجه وأقل وعياً لقربه الجسدي منها لأدركت التغيير في صوته والشر المتسلل في صوته من وراء الغضب:

ـ علاقتك مع.. مع هاربيت بينيلان.

ـ أنت لا تعرفين شيئاً عن علاقتي بهاربيت بينيلان.. أتعرفين شيئاً؟

ـ بإمكاني أن أتصور ذلك.

ـ أوه.. بلى! وإلى أي حقد قد يوصلك تصورك؟

نظرت إلى وجهه القاتم: لا أفهم.

ـ أعني.. ما الخبرة التي تمتلكينها أيتها البريئة في مثل هذه الأمور؟

ـ لا تكن رهيباً هكذا!

ـ وهل من الرهيب أن أدعوك بـ «بريئة»؟

ـ بالطريقة التي تتلفظها.. أجل.

سأل بلهجة تهديد:

ـ وكيف تريدين أن أقولها لك إذن؟

ارتفع رأسها قليلاً.. وقالت:

ـ لا أظن أنني أريد منك أن تقول شيئاً لي.. لكنني لست كاذبة.. مهما أسأت الظن بي.

أمسك إحدى يديها يشدها إلى صدره ووضع يدها هناك تحت يده.. سرعان ما تحركت مشاعرها بجنون وتسارعت أنفاسها.. كانت تشعر بخفقان قلبه الثقيل تحت راحة يدها فاتسعت عيناها آلياً.. وسألت:

ـ رايون..

لكنه هز رأسه، وانحنى حتى لامست شفتاه وجنتها تحت أذنها مباشرة..

كررت بصوت أجش: «رايون».

دس ذراعيه حولها فسارعت إلى دفع نفسها إليه. أصبح وجهها على

صدره فشمت رائحة البودرة التي يستخدمها بعد الحمام ورائحة شيء آخر.. شيء حددته أخيراً.. زيت.. زيت؟ تولى عقلها في لحظات زمام الأمور.. زيت محركات! الزيت المستخدم في الكراجات..

انتزعت نفسها عنه وسحبت نفساً عميقاً بسرعة ونظرت إليه باحتقار:

ـ لا تلمسني! لا تتجرأ على وضع يديك القذرتين عليّ! ما بالك؟ ألم ترق لك هاربيت الليلة أم تراك تريد أن تثبت لنفسك مدى نشاطك؟ عدت إلى هنا بعد الظهر تشهّر بي وبمايسون وتسيء بنا الظن.. ثم خرجت وقضيت المساء مع عشيقتك! من تحسب نفسك رايون؟ وماذا تظن أنك تفعل الآن؟

نظر إليها بطريقة كادت تضعف عزيمتها.. ثم قال:

ـ كنت أرضي فيك الرغبة في أنك امرأة، إنما من الواضح أنك أثبت أنك عكس ذلك!

شهقت: «أتشير إلى أنني أنا من.. دعوتك.. إلى هذا؟»

ـ فلنقل أنك لم تعارضي.. على الأقل ليس قبل أن تسيطر على أفكارك هذه الفكرة المجنونة عن هاربيت.

ـ ليست فكرة مجنونة.. أنا أشم رائحة الكراج فيك!

ابتسم مراوغاً:

ـ وماذا ظننت؟ أننا تطارحنا الغرام بين العدة وزيت المحركات؟ أوه.. أنضجي سيلا.. حباً بالله! هاربيت لا تعيش في الكراج..

ارتدت خطوة إلى الوراء.. الأمر يبدو سخيفاً كما شرحه.

ـ حسناً.. على أي حال لا تنكر أنك كنت معها..

ـ لست مضطراً إلى الإنكار، ولست مضطراً إلى تقديم تقرير عن تحركاتي.

ـ هذا صحيح.. اخدعني كي تتملص من الأمر.

ـ أنا لا أخدعك.. آوي إلى فراشك سيلا.. أنت تصيبيني بالغثيان.

تقدمت متعثرة إلى الباب ملهوفة للابتعاد عنه، وصعدت إلى غرفتها.. كانت ترتجف ولكن البرودة كانت تنبع من أعماقها لا من

الخارج.

بدا لها أن ساعات طوالاً مرت قبل أن تسمع رايون يعود إلى غرفته.. بدت خطواته غير ثابتة.. وسمعته يدخل إلى الحمام ثم يصفق باب غرفته وراءه.

فتحت باب غرفتها وتوجهت إلى الحمام وحين عادت خلعت روبها، وكانت على وشك التسلق إلى السرير.. حين لفتت نظرها حركة خفيفة في زاوية الغرفة.. أدارت رأسها ببطء فرأت عينين خرزيتين تنظران إليها في الظلام، فاقشعرت بشرتها وبردت ونضحت عرقاً.. وتصاعد الذعر إلى شرايينها.. ما هذا؟ فأرة؟ جرذ؟ أوه.. يا إلهي.. ليته لا يكون جرذاً! وأحست بالغثيان.

هرعت نحو المصباح ولكنها في عجلتها أوقعته.. فقفز المخلوق من مكانه فصاحت مذعورة، فتحت الباب وهربت إلى غرفة رايون تقتحمها بدون أن تقرع الباب. كان النور منطفئاً وكان هو في الفراش.. ولكن حركتها أيقظته. فعندما أضاءت النور، كان جالساً في السرير ينظر إليها ببرود:

ـ والآن ماذا تريدين؟

أمسكت بمقبض الباب وكأنه طوق نجاة ووقفت هناك ترتجف كورقة في مهب الريح.

راحت تقول متلعثمة:

ـ أنا.. هناك.. هناك شيء في غرفتي.. أنا.. أنا.. أظنه.. جرذاً!

تنهد رايون وأشاحت سيلا نظرها عنه وهو يخرج من السرير ليرتدي الروب.. تجاوزها بدون أن يتفوه بكلمة وتوجه إلى غرفتها أما هي فوقفت هناك مرتجفة.. تخشى غضبه حين يعود.

عاد صامتاً ثم هز كتفيه:

ـ لا شيء هناك الآن.. عادة ليس لدينا جرذان هنا.. ولكنني سأضع فخاً له في الغد.. وأرى ماذا يحدث.

هزت رأسها محاولة استعادة رباطة جأشها.. لكن غلالة نومها كانت

رقيقة.. فشعرت بالبرد، ببرد من نوع آخر.. تقدم رايون ليقف قرب سريره ينظر إليها بثبات ويقول:

ـ حسناً.. ماذا تنتظرين؟

هزت رأسها:

ـ لا شيء.. رايون.. أعرف أن هذا ليس الوقت أو المكان المناسبين.. لكنني آسفة على ما قلته لك الليلة..

ـ أنسي الأمر.

ارتدت: ليلة سعيدة إذن.

ـ ليلة سعيدة.

خطت خطوة ثم التفتت: رايون..

ـ أوه.. حباً بالله سيلا.. ماذا تحاولين أن تفعلي بي؟

ما هي إلا بضع خطوات حتى أصبح قربها يدس يديه حول خصرها ويشدها بعنف إليه:

ـ إذا كان هذا ما تريدين.. فلماذا لا تقولين ذلك؟

وأدركت أنها كانت تدعوه إلى هذا.

قاومته ولكن بلا جدوى فقوته أعظم من أن تقاوم، إضافة إلى مشاعر أخرى كانت تتعارك مع العقل السليم فيها.. وحتى مخاوفها لم تعد دفاعاً مؤكداً.. التقطها ليحملها إلى فراشه ثم أطفأ النور.. قاومته سيلا ساعتئذ لأن الخوف تغلب على كل شيء.. ولكنه كان مصمماً على أن يظهر لها أن لا مجال للتراجع.. وازداد رعبها عندما اجتاحتها موجات الذعر..

تمتم: سيلا.. سيلا هذا جنون..

لكنه جنون لم يعد بمقدور أي منهما محاربته.. في وقت لاحق التصقت به كقطة تطلب الأمان، ونامت بين ذراعيه بدون خوف من المستقبل.

استيقظت في الصباح متأخرة فوجدت أشعة الشمس تسطع عليها من بين شقوق الستائر.. تقلبت ولكن السرير على الجانب الآخر كان فارغاً.

نهضت على مضض.. استحمت وارتدت ملابسها، ثم نزلت إلى

تحت فوجدت طونيا تعد القهوة. ما إن رأت الفتاة حتى ولى النعاس بعدما لاحظت ابتسامتها الماكرة التي تدل على معرفتها بما حدث. لكنها لن تعرف شيئاً، لا يمكن لرايون أن يتناقش معها ما حدث.. لذا عليها أن تتصرف بشكل طبيعي لئلا تثير التعليقات.

قالت طونيا بأدب:

ـ صباح الخير مدام.. لقد تأخرت في النوم!

لم تستطع سيلا السيطرة على توردها لكنها تمكنت من السيطرة على صوتها: أين زوجي؟

ـ مسيو رايون خرج منذ ساعتين تقريباً في الحادية عشرة، لكنه قال إنك أمضيت ليلة قلقة وإن من حقك أن تنامي.. لقد بقيت هادئة جداً مدام.

أخفت سيلا انزعاجها:

ـ شكراً لك. وأعرف كم الوقت.. لم أكن على ما يرام بالأمس لأرافقه إلى ليون.

عادت طونيا إلى الطباخ:

ـ لا.. مدام.. ألا تريدين القهوة؟

ـ أوه.. بلى.. بلى.. أرجوك.. ماذا كنت تفعلين؟

ـ أخبرني المسيو أن جرذاً أخافك ليلة أمس مدام.. ولقد وضعت له فخاً لالتقاطه.

سكبت لها في الفنجان القهوة الساخنة:

ـ هاك.. هل أحضر لك شيئاً آخر؟

في صوتها رنة تحدي لم تستطع سيلا تجاهلها. الواضح أنها كانت فوق تضع الفخ وهذا يعني أنها لاحظت أن سيلا لم تقضِ ليلتها في سريرها.. لكن من الجبن ألا تقول شيئاً عن الموضوع.. أمسكت الفنجان بين أصابعها:

ـ أما قلت إن زوجي طلب منك عدم إزعاجي؟

ـ إزعاجك مدام؟ أوه.. أوه... أجل، فهمت! في مسألة وضع

الفخ . . لقد شرح لي السيد رايون أنك كنت خائفة من الجرذ، فأعطاك غرفته ونام في غرفتك.

إذن هكذا شرح الأمر . . كان يجب أن تعرف أنه لن يصعب عليه إيجاد عذر.

ـ لقد فكرت أن السير في غرفة فيها فخ للجرذان قد يكون مربكاً خاصة أن الجرذان تقفز بين الأقدام فجأة.

هزت طونيا رأسها:

ـ كنت حذرة مدام . . وهل أنت بخير اليوم؟

ـ بخير؟ أوه . . أجل شكراً لك . . أظن أن من الأفضل أن أسرع فأنا لم أفكر حتى الآن في ما سأطهو للغداء.

ـ طلب مني السيد أن أخبرك أنه لن يأتي للغداء اليوم مدام.

ـ لن يأتي؟ ولماذا؟

ـ ذهب إلى ليون مدام لأنه لم يذهب بالأمس.

أيجب أن يذهب اليوم من بين كل الأيام؟ ليس هذا فقط، بل لماذا لم يدعها لترافقه؟

ـ فهمت . . لا داعي للعجلة إذن؟

ـ لا مدام.

ما إن حلّ المساء حتى جاعت كثيراً فتناولت قطعة معجنات وقليلاً من السلطة . . لقد بدأت تقلق على رايون والفراغ في أعماقها لم يساعدها على الهدوء.

حين توقفت الستايشن في الفناء الخارجي كانت الساعة التاسعة والنصف . . في هذا الوقت كانت أعصابها مشدودة وكأنها أوتار كمان . .

دخل رايون، ابتسم لها وهو يخلع معطفه . . غسل يديه وجففهما:

ـ آسف على التأخير سيلا . . أصرّت سوزي بالاتين على البقاء معهما لتناول العشاء. لعلك لم تحضري شيئاً خاصاً . . هل فعلت؟

كانت سيلا على وشك إشعال الفرن، فارتدت بحدة: لا شيء خاص.

ارتد إليها ببطء:

ـ أخبرتك طونيا أنني ذهبت إلى ليون . . أليس كذلك؟

ـ أجل . . أجل . . بالطبع.

تقدم رايون إلى النار يدفىء يديه، وسأل:

ـ هل كان يومك جيداً؟

استمرت في تجنبه: كان يومي هادئاً.

ـ لا زوار؟

ارتفع صوتها:

ـ وماذا يفترض بكلامك هذا أن يعني؟

ـ لا شيء . . تساءلت عما إذا زارني القسيس . . أخبرني مساء أمس أنه سيحاول المجيء لرؤيتك.

لاكت سيلا شفتها السفلى.

ـ لم يأتِ أحد.

استقام رايون عن النار ودس يديه في حزامه، ينظر إليها مقوماً:

ـ تبدين أنيقة هذا المساء . . يجب أن ترتدي الثياب الطويلة دائماً . . إنها تناسبك.

رفعت حاجبيها لكنها لم تعلق. كانت تحاول معرفة مزاجه . . كان يضع واجهة فاتنة، يتصرف بأدب وتمدن . . لكنه من الداخل كان يكبت مشاعر من نوع آخر . . لكن ما هي هذه المشاعر؟ ما هي مشاعره الحقيقية؟

شغلت نفسها بإعادة الصحون غير المستخدمة إلى مكانها، ووضعت الطعام والسلطة في البراد . . أما هو فأشعل سيكاره الرفيع الطويل ووقف وظهره إلى النار . .

قالت لنفسها: هذا جنون . . بعدما حدث ليلة أمس يجب أن يكون هناك أشياء أخرى يقولانها وترتيبات أخرى يقومان بها . . تعرف الآن أنها وقعت في حبه . . ولكنه لم يذكر شيئاً، حتى في أكثر اللحظات جنوناً لم يذكر لها شيئاً عن الحب . . ولكنها لن تتحمل أن تستمر الأمور على هذا النحو؟

أخيراً عندما لم يعد هناك ما تفعله وقفت قرب النار وتضرعت إلى الله أن يقوم بخطوة تجاهها.. نظر إلى وجهها ثم رمى عقب سيكاره في النار وقال:

- سيلا.. هناك ما أريد قوله لك.

خفق قلبها، فرفعت بصرها إليه: نعم؟

تنهد تنهيدة عميقة:

- سيلا.. حين وضع والدك وصيته وأصرّ على.. هذا الشرط السخيف، شرط الزواج لم يذكر فعلاً أين من المفترض أن نعيش.. ما أحاول قوله.. في البداية بدا من المنطق أن نتشارك هذا المنزل.. وأن نعيش كزوجين طبيعيين.. إلا في مرحلة واحدة.. موافقة؟

- أجل.

- كان هذا في البداية كما قلت. ربما كان ترتيباً غبياً.. لكنني فكرت.. على أي حال.. ما أحاول قوله: ليس هناك ما يدعو إلى أن نتشارك هذا المنزل.. أعني أن والدك لم يشترط هذا.. ولا سبب يمنعك من العودة إلى انكلترا لتؤسسي لك بيتاً في مكان آخر.

نظرت إليه برعب: ماذا تقول؟

هز رأسه بنفاد صبر:

- كنت أحمق حين تصورت أننا ستتمكن من العيش بدون أن نجرح مشاعر بعضنا بعضاً.. لكنني كنت بحاجة إلى مدبرة منزل وكنت أنت بحاجة إلى منزل..

أحست بالغثيان وقاطعته بضعف:

- ولكنك ما تزال بحاجة، وأنا بحاجة.

- أجل.. أعرف. ولكن الموقف تغير.. أليس كذلك؟

- تعني.. بعد ليلة أمس؟

- بالتأكيد أعني ليلة أمس.. يا إلهي، لم أتصور أنني يوماً قادر على.. إغواء طفلة!

صاحت:

- لكنني لست طفلة!

تجهم وجهه:

- حسناً.. لست طفلة.. بل أكثر بقليل. لقد وثقت بي وخنت ثقتك.. أعترف أنني لست الملام الوحيد.. وأن هناك حدوداً لقدرتي على التحمل. إنما هذا لا يعطيني العذر.. بعد ليلة أمس فقدت احترامي لذاتي والآن اسمحي لي أن أحافظ على ما تبقى.

- تظهر الأمر بشكل مأساوي.

- لقد كان مأساوياً.. أتعتقدين أنني فخور بما فعلت؟

هزت رأسها:

- أنا.. أنا الملامة..

تغيرت ملامحه:

- حباً بالله سيلا.. فلتنه هذا الأمر، لقد حذرتك مرة من محاولة تجربة مخالبك عليّ.. وما حدث كان نتيجة مباشرة لعدم قدرتي على السيطرة على نفسي!

ضغطت راحتي يديها على خديها:

- لكن.. لقد أردتك أن.. تحبني..

أجفل:

- أرفض الاستماع إلى مثل هذا الكلام العاطفي.. لم يكن هناك حب فيما حدث.. بل مجرد رغبة سيطرت على عقولنا.

لم تصدق أنه يقول هذه الكلمات.. لكن ألم يكن هذا بالضبط ما تخشاه؟

سألت: «وهل.. أرضيتك؟»

نظر إليها:

- وما هو رأيك؟

- أنا.. أظن هذا!

مرّ في عينيه وميض ذكرها بليلة الأمس لكنه مرّ بسرعة. ولم يكن سوى شعاع أمل في عالم تحول فجأة إلى الأسود، ثم ارتد ليقول:

ـ كم من المال تحتاجين لتجدي شقة تؤثثينها كما يعجبك؟

كبتت أنفاسها.. فقد شلها ما كان يقوله لحظات ولكن فجأة لم تعد خائفة.. على أي حال هذا منزلها أيضاً.

قالت بهدوء: «أنا لن أغادر هذا المنزل».

ـ ماذا تقصدين؟

ـ ما أقوله بالضبط. لن أغادر.. سأبقى هنا.. فهذا منزلي.

ـ أتفهمين ما تقولين؟ أريد منك أن ترحلي.

ـ وأنا لا أريد.

قست عيناه:

ـ بإمكاني جعل حياتك جحيماً لو بقيت.

هزت رأسها:

ـ يجب أن أخاطر بهذا.

شد قبضتيه بنفاد صبر:

ـ سيلا! حباً بالله! نفذي ما أقوله! أرجوك!

ـ لا.

سحب نفساً غير ثابت:

ـ إذن، يجب أن أرحل أنا.

صاحت برعب: «لا يمكنك ذلك! إلى أين ستذهب؟ يجب أن تبقى هنا من أجل الكروم!»

ـ هناك منازل أخرى في بلياز.. سأجد مكاناً.

فغرت فاها بإحباط:

ـ لا يمكنك أن تكون قاسياً هكذا!

ظنته للحظات سيتحداها.. لكنه أراح يديه على رف الموقد فوق النار وضغط جبينه على حافته:

ـ لا.. لن أستطيع الذهاب إلى أي مكان آخر في بلياز.. أنت على حق.. وإن كان لا بد من الرحيل فليكن بعيداً عن هنا.

ـ لكنك لا تستطيع.. والدي..

ارتد ينظر إليها:

ـ والدك.. أجل.. هناك أمور كثيرة يجب الرد عليها.. أليس كذلك؟ حسناً.. سأبقى.. على الأقل في الوقت الحاضر. ستستمر الأمور على ما كانت من قبل.. لكنني أحذرك، إن لم ينجح هذا فقد أضطر إلى ترتيبات أخرى.

ـ أية.. ترتيبات؟

هز كتفيه: «بإمكان مدير العمال إدارة المزرعة».

ـ لكن قدراتك هي التي أنجحتها.. إنها حياتك!

ارتدَّ مجدداً ليحدق إلى النار وتمتم بخشونة:

ـ أجل.. حياتي.. كم حياة يمكن أن تكون لرجل؟

لم تفهم ما يعني.. ولكن ما فهمته أنها في الوقت الراهن كسبت معركة صغيرة.. والأمر عائد إليها حتى لا تدمر الخيط الواهي الذي يربطهما.

* * *

٧ ـ هل تجرؤ؟

بعد أسبوعين تلقت سيلا رسالة أخرى من ليليان داموراي.

كم شعرت بالذنب حين قرأت في الرسالة أن مدام داموراي خائبة الأمل لأنها لم تتلق رداً على رسالتها الأولى.. وكم أملت أن تكون سيلا مستقرة سعيدة في زواجها.. وجددت مرة أخرى دعوتها لسيلا ورايون لزيارتها في باريس، لكن سيلا في هذه المرة لم تتطرق إلى الموضوع مع رايون.

فمنذ تلك الأمسية الرهيبة عندما طلب منها أن ترحل، خبت علاقتهما.. كان الموقف على سيلا لا يطاق، ولكن حبها وحده هو الذي منعها من الانفصال. كانت تعيش على أعصابها حين يكون في المنزل، وأحياناً كانت تتساءل عما إذا كان هذا العذاب الذي توقعه بنفسها هو أسوأ من العيش بعيداً عنه.. لكن التفكير في العيش بدونه كان يشعرها ببؤس رهيب.

أما بالنسبة لرايون فكان الموقف أفضل بكثير كما ظنت.. ولم يكن متشابك العواطف إذ كان يقضي معظم أوقاته خارجاً وهذا ما جعل أموراً أخرى تملأ أيامه. كان هناك الكثير من العمل في كروم العنب.. تراب يُقلب ويسمّد.. غرسات جديدة تُزرع، غرسات قديمة تُقلم وتشذّب.

مع كل هذا كانت ترى التوتر الذي يسود المنزل إذ لا يستطيع أحد تجاهله.. وحتى طونيا وجدت صعوبة في كبح فضولها الطبيعي.. أحست أن الوضع بطريقة ما تغير.. لكنها لم تعرف كيف..

لم تر مايسون هاردلي مرة أخرى.. وفي أحد الأيام أفضت إليها طونيا أنها سمعت بأن السيد رايون طلب منه عدم زيارة المنزل في غيابه.. رفع هذا الخبر من معنويات سيلا قليلاً حتى أدركت أن رايون لم يكن مهتماً بها بل بما قد يتقوله الناس عنها.. وترت هذه المعلومة أعصابها أياماً، وخرجت عن عادتها في الإخلال بنظام وتوقيت الوجبات بغية إثارة تعليق منه أو احتجاج أو ما شابه.. لكن رايون غضّ النظر عن حركاتها الطفولية وأمضى فترة الانتظار في مكتبته.

تساءلت كم سيدوم هذا الموقف قبل أن تنهار أعصابها. أخيراً اكتشفت ما صدمها صدمة عظيمة.

في البدء لم تلاحظ الأمر.. لم تلاحظ الدوار الخفيف في الصباح وكراهيتها المفاجئة للشاي والقهوة. كانت مشغولة البال كثيراً في أفكار أخرى بحيث لم تنتبه لما يجري لها. ثم في أحد الأيام شعرت بغثيان عنيف ونقيأت.. فعدت الأيام فإذا موعد عادتها قد تأخر.. سعت مرعوبة إلى قاموس طبي رأته مرة في المكتبة وبعدما قرأت شيئاً منه توصلت إلى أنها تكاد تكون حاملاً منذ شهرين.

شتتها هذا الاكتشاف فأمضت يومها شاردة لا تصدق ما حدث لها، ثم عنت على بالها أفكار مجنونة.. ولكنها رفضتها فهي ترغب فعلاً في حمل طفل رايون.

عندما عاد رايون إلى المنزل لم تكن قد اتخذت قراراً.. وللمرة الأولى لم يكن في المطبخ أثر لعشاء أو لنار الطبّاخ. وكم بدا المنزل بارداً مُهملاً.

دخل يقوّم الوضع فوراً.. كانت سيلا جالسة إلى المائدة وفي يدها كوب قهوة برد سائله. نظر إلى وجهها الشاحب لحظات، ثم أشعل الموقد. عندما بدأت ألسنة النار تتلاعب بالموقد، ملأ غلاّية الماء ووضعها على النار لتغلي.. ثم ارتدّ لينظر إلى سيلا مجدداً.

ـ ما الخطب؟ هل أنت مريضة؟

قررت سيلا في تلك اللحظات أن ادعاء المرض هو أسلم السبل:

ـ أنا . . لم أكن بخير . . طوال اليوم.

إنها صادقة تقريباً.

عبس رايون ثم انتفضت عندما لمس جبهتها.

ـ لا حرارة . . كيف تشعرين؟

ـ أنا . . بخير . . ماذا تريد للعشاء؟ هل يكفيك بيض وسلطة؟

ضغط رايون ظهرها إلى الكرسي وهي تحاول النهوض:

ـ ابقي حيث أنت . . أستطيع أن أتدبر أمري . . هل أنت جائعة؟ أم لعلك لا تشعرين برغبة في الطعام؟

لعقت شفتيها . . في الحقيقة تكاد تموت جوعاً، وفكرة الطعام تروق لها . .

قالت معترفة:

ـ أنا . . أنا فعلاً جائعة . . سأشعر بأنني أفضل حالاً عندما أملأ معدتي بطعام ما.

أمال رأسه جانباً:

ـ حسناً . . ماذا تحبين للعشاء؟ حساء، بيض مقلي؟ فطيرة فاكهة مع كريما؟

وجدت سيلا بسمة تلامس شفتيها . . إنها تشعر بالراحة لأنه يحادثها مرة أخرى.

ـ أرغب فيها كلها.

رفع حاجبيه:

ـ كلها . . ؟ مع بعضها بعضاً؟

ابتسمت مجدداً:

ـ لا . . بالتأكيد . . تعرف ما أعني . . هل أساعدك؟

ـ أنا قادر على طهو أومليت . . وأستطيع فتح علبة حساء.

كانت الوجبة ممتازة، مع أن الجزء الأكبر من متعة سيلا كان سببه اهتمام رايون . . وكأنما مرضها المزعوم جعله يعي كم يعتمد عليها . . تكلم معها بكل مودة، عن الكروم والعنب، وعن المشاكل التي

سيواجهونها حين تظهر العناقيد. فكرت فجأة في أن آب وأيلول يعني موعد القطاف . . ولن تكون هنا . . ففي تقديرها أن الطفل سيولد في أيلول . . وحتى ذاك الوقت ستكون قد أسست بيتاً في مكان آخر.

لاحظ رايون كيف تغير وجهها فجأة:

ـ ما الأمر؟ ماذا جرى؟ لقد أصبحت شاحبة . . هل تشعرين بالمرض مجدداً؟

هزت رأسها وهبَّت على قدميها:

ـ لا . . لا . . أنا أشعر . . بالتعب ليس إلا.

وقف رايون هو أيضاً ودار حول الطاولة إلى جانبها:

ـ هل أنت واثقة أنك على ما يرام؟

ـ أنا . . متعبة . . قلت لك.

ـ لماذا؟ وماذا كنت تفعلين؟ من المفترض أن تقوم طونيا بكل العمل الشاق المتعب.

ـ إنها تقوم بهذا كله . . أعتقد أنني لم أنم جيداً ليلة أمس.

ـ لماذا؟ هل أزعجك ذلك الجرذ مرة أخرى؟

ـ لا . . لقد التقطت طونيا جرذاً في المطبخ منذ أسبوعين وأعتقد أنه كان هو.

هز رايون رأسه . . ثم دس يده تحت شعرها بطريقة لا إرادية وأمسك عنقها ثم قال بصوت هامس:

ـ أنت متوترة . . أليس كذلك؟ هل كان مزعجاً لك إلى هذا الحد؟

ـ ما . . ما هو؟

ـ الموقف . . أعتقد أنك تظنين بأني عاملتك بشكل رديء وأنا آسف.

كبتت أنفاسها! هل يعتذر؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ كنت أنانياً فلم أفكر إلا في نفسي . . لم أفكر قط في ما هو شعورك . . وكان ذلك فظاظة مني، أليس كذلك؟

تحركت سيلا تحت أصابعه: أنا . . أنا . . لم . .

اشتدت أصابعه عليها لحظة:

ـ اجمدي.. سيلا، لقد فكرت في هذا جاداً.. وأدرك أنني تسرعت عندما طلبت منك الرحيل، وسألت نفسي: ما أنا؟ رجل أم حيوان؟ هل يجب أن أتصرف دائماً كالبربري؟

هز رأسه وشد على شفتيه:

ـ نحن متزوجان.. وسيثور ذعر القسيس المحترم لو هز العقد بيننا شيء.. وكوني رجلاً مؤمناً عليّ أن أقبل روابط الزواج المفروضة عليّ، لذلك أقترح أن نحاول إنقاذ شيء من بين الدمار.. نحاول استعادة علاقتنا التي كانت ترضي المجتمع..

جذبت سيلا نفسها منه، وكانت عيناها تبرقان بدموع لم تذرفها.. توقفت خفقات قلبها للحظات عندما تصورت أنه يوشك أن يطلب منها مشاركته فراشه.. كانت خيبة الأمل والبؤس كافيين لدفعها إلى حافة المزاح. التفتت إليه:

ـ ما الأمر رايون؟ هل اعترفت هذا الصباح للأب باتريك فقال إن طريقة تصرفك باردة وغير إنسانية؟ عجباً.. ماذا قلت له؟ سامحني يا أبي لأنني ارتكبت المعصية؟ لقد أغويت «زوجتي» وحين حاولت أن تغفر لي طلبت منها الرحيل؟ أجل.. هذا معقول.. وماذا بعد؟ نعم.. أنا لا أكلم زوجتي أبداً إلا إذا سألتني شيئاً عن الغسيل أو الطعام أو تدبير المنزل.. أهذا ما قلته له؟ وهل سامحك على خطاياك؟ وهل سأتلقى العطف منك تكفيراً عن سوء خلقك؟

قاطعها بصوت أجش مخيف:

ـ اصمتي! كيف تجرؤين على مخاطبتي هكذا؟

ـ أوه.. بل أجرؤ.. وأجرؤ على ما هو أكثر.. يا إلهي! يا لعجرفة الرجل! كيف تقترح استعادة علاقتنا التي ترضي المجتمع..! أي مجتمع؟ مجتمعك أم مجتمعي؟ ومنذ متى تهتم أنت بأشياء كهذه؟

صاح قائلاً:

ـ سيلا.. أنت تغريني بأن أظهر لك أنني زوجك وأطلب احترامك

لي!

ـ حقاً! وكيف تقترح أن تحقق هذا؟

رد وهو يفك حزامه الجلدي:

ـ ثمة.. طرق!

استحوذ عليها ذعر رهيب.

ـ أنت.. لن.. لن تجرؤ..

لكن وجهه أنذرها بأنه قد يفعل.

شهقت شهقة رعب وارتدت على عقبيها هاربة بأسرع مما سمحت لها ساقاها.. ولم تتوقف إلا في غرفتها التي أوصدت بابها. نظرت حولها بيأس تبحث عما تسد به الباب.. فجأة أدركت أن الضجيج الذي حسبته وقع قدميه وهو يلحق بها لم يكن سوى خفقان قلبها العنيف بين جنبيها.. وجدت كرسياً وضعته بأمان تحت مقبض الباب وهي تدرك أن لا شيء سيمنع رايون إن اختار أن يدخل الغرفة.

مرّت أكثر من نصف ساعة حين سمعته يصعد الدرج.. ويدق على بابها يسأل:

ـ هل أنت نائمة سيلا؟

صمت قليلاً.. فالواضح أنه ينتظر ردها.. ثم:

ـ ما كنت لأضربك.. يا إلهي.. أنت تجبرينني على ما لا أصدق أنني قادر على القيام به! حسن جداً سيلا.. تظاهري أنك نائمة.. لكن تذكري.. أليس الصبح بقريب؟

بهذا التهديد ذهب.

لم تشعر بالخوف بعد ذهابه فهي تعرف أنه لن يقتحم غرفتها بالقوة.. لكن كان قد حل بها كآبة عميقة. إنها في موقف يائس أكثر مما كانت تتصور. لو كانت في ظروف أخرى لقبلت عرض الصداقة التي تقدم به، أما الآن فلا تستطيع. فالصداقة آخر ما قد يتشاركانه. خشيت من الموقف المحزن الذي سيحدث لو اكتشف أنها تتوقع طفله.

بعدما تسللت إلى الحمام واغتسلت وعادت لتخلع ملابسها كانت قد

اتخذت قراراً.. سترحل.. إنما إلى انكلترا.. على الأقل ليس فوراً.. أولاً ستترك هذه المنطقة لتجد لها مكاناً في مدينة مجهولة. ثم تراسل رايون طالبة منه بعض المال.. عن بعد سيبدو طلبها بارداً ومعقولاً.. لا شك أنه سيشعر بالراحة للخلاص من مسؤولية لا يريدها.

لكن إلى أين تذهب؟ فكرت لا إرادياً في ليليان دامووراي.. فأغرتها نفسها بمراسلتها لتسألها إن كان بالإمكان أن تستقبلها في بيتها، لكن الرسائل تتطلب وقتاً.. ثم ليس هناك ما يدعوها إلى الافتراض بأن ليليان سترد عليها بعدما رفضت سيلا الرد على رسالتيها.. لا.. إن كانت ستذهب إلى ليليان دامووراي فلتكن الزيارة غير متوقعة.

انقلبت إلى معدتها ودفنت وجهها في الوسادة.. قد تراسل رايون من باريس، وما إن يرسل إليها المال حتى تحاول إيجاد شقة.. وهي تشك كثيراً في أن يلاحظ عنوان ليليان على رسالتها وحتى لو لاحظ فلا تظنه سيلحق بها إلى هناك.. فكما قال يعرف بوجود المرأة ولكنها ليست قريبته.

اتخذت القرار.. عليها غداً أن تتدبر أمر وصولها إلى أنسيانز.. ومن هناك ستركب القطار إلى العاصمة. أما الملابس فلن تأخذ منها إلا ما هو ضروري على أن تطلب ما تبقى من أغراضها في وقت لاحق. غداً ستغادر المنزل عندما يكون في الكروم، ولكنها ستترك له رسالة لئلا يقلق.. ثم تكتب له رسالة متى بلغت غايتها.

كان منزل ليليان دامووراي في إحدى ضواحي باريس وهي ضاحية أنيقة، وما أشد ما كانت صدمة سيلا عندما توقف التاكسي أمام درج حجري يفضي إلى منزل طويل أنيق بعيد كل البعد عن منزل خالتها المتواضع.. بدت جميع المنازل في الساحة ساحرة وكانت النوافذ البيضاء والشرفات ذات السياج الحديدي المشغول توحي بالعيش الرغيد.

سألت السائق: «أواثق من العنوان؟»

ابتسم السائق لها.. كانت بسروالها الجينز ومعطفها وشعرها المسترسل حول وجهها بعد ليلة لم تذق فيها طعم النوم جذابة بشكل غير

عادي:

ـ هذا هو المكان، مدموزيل! الرقم اثنان وعشرون.. أليس كذلك؟

تنهدت سيلا.. ما زالت غير مقتنعة.. ولكنها ترجلت من السيارة وفتشت في حقيبتها لتنقده حقه.. بعد ذلك تناولت حقيبتها وارتقت الدرج. نظرت إلى ساعتها فإذا هي الثامنة والنصف.. ترى هل استيقظ أحد ممن في المنزل في مثل هذا الوقت الباكر؟

كان هناك جرس يدوي جذبته فسمعت رنينه يدوي في المنزل ثم ما لبثت أن رأت خادمة ترتدي قبعة وميدعة بيضاء.

ـ وي.. مدموزيل؟

صححت لها آلياً:

ـ مدام.. هل المدام دامووراي في المنزل؟

كانت الردهة خلف الخادمة مكسوة بسجاد سميك أزرق وذهبي والجدران مكسوة بالخشب البراق وثمة درج على شكل مروحة هو أيضاً مكسو بالسجاد أيضاً. لا يمكن أن يكون هذا منزل زوجة عم أبيها..

ـ ومن أقول لها.. مدام؟

سحبت نفساً عميقاً:

ـ إذن وصلت إلى العنوان الصحيح؟ هذا منزل مدام دامووراي؟ مدام ليليان دامووراي؟

ـ أجل سيدتي..!

تصاعد صوت من وراء الخادمة، وظهرت امرأة أخرى.. خالتها سيلا للوهلة الأولى زوجة عمها الكبيرة.. ولكن الثوب الأسود الطويل وجو السيطرة دلا على أنها مدبرة منزل.. كم خادمة لدى ليليان دامووراي؟

تكلمت المرأة بصوت حاد:

ـ ماذا يجري هنا ماري؟ هل تواجهين متاعباً؟

خطت سيلا خطوة إلى الداخل:

ـ لقد جئت أرى.. زوجة عمي.. مدام.. أنا سيلا دامووراي.

تعمدت ذكر «دامووراي» فعبست المرأة ثم صاحت بذهول:

ـ أنت الشابة التي تزوجت مسيو رايون؟

لم تكن تتوقع أن توصف هكذا في منزل زوجة عمها لكنها هزت رأسها وقالت:

ـ أجل.. سيلا دوبار الآن، ولكنني كنت داموراي قبل الزواج.

هزت المرأة رأسها بذهول.. ثم تمالكت نفسها.. وابتسمت:

ـ حسناً.. من الأفضل أن تدخلي.. مدموزيل.. أنا آسفة يجب أن أخبر السيدة، ولكنك تبدين صغيرة جداً.

ترنحت قليلاً:

ـ أتظنين هذا..؟ أوه.. أين الحمام؟

فتحت المرأة باباً بسرعة ورافقتها إلى غرفة ملابس صغيرة كان فيها مغسلة خضراء شاحبة وكرسي حمام.

عندما خرجت من الحمام شعرت بأنها توشك أن تقع أرضاً، كانت حقيبتها قد اختفت والخادمة الشابة أيضاً.. أما المرأة الأكبر سناً فما تزال واقفة هناك، تنظر إليها باهتمام.

ـ هل أنت أفضل حالاً الآن مدموزيل؟

هزت سيلا رأسها فأضافت المرأة:

ـ عظيم. سأعرّف عن نفسي.. أنا مدام لوفيجيه مدبرة منزل زوجة عمك مدام داموراي.. لقد أخبرت زوجة عمك بوصولك. وحالما تشعرين بتحسن أرافقك.

كانت سيلا تسحب أنفاساً سريعة وبدأت تشعر بأنها عادت إلى طبيعتها.. ولكنها شعرت بالجوع.. وتساءلت عما إذا كان من الممكن طلب شربة ماء قبل أي شيء آخر.

وكأنما تمكنت السيدة من قراءة أفكارها:

ـ أتريدين شيئاً آخر مدام.. قهوة، أو شيئاً من الطعام..؟

تمتمت سيلا مرتبكة:

ـ أريد شربة ماء.

دهشت السيدة لوفيجيه: «ماء؟ بالتأكيد.. رجاءً.. الحقي بي».

أدخلتها إلى غرفة مشرقة تطل على حديقة محاطة بسور.. قالت لها:

ـ هلا انتظرت هنا.. فلن أتأخر.

ثم ابتسمت لها ابتسامة تشجيع أخرى وتركتها..

كانت سيلا مسرورة بالجلوس على كرسي وتساءلت عما إذا وجد رايون رسالتها.. وعما إذا أعاد مايسون اللاندروفر إلى مكانه بدون أن يراه أحد.

لم يكن الوصول إلى أنسيانز سهلاً فلا سيارات أجرة في بلياز.. ولو طلبت من أحد أن يقلها لأثارت ريبته لذا لم تجد أمامها غير مايسون ولقد ساعدها بدون مناقشة.. تعرف أنه يعتبر ما فعله انتقاماً من رايون على طريقته في معاملته، ولكنه كان وسيلتها الوحيدة للهرب.

قالت له إن في السقيفة سيارة لاندروفر نادراً ما يستخدمها رايون ولكنها لا تعرف القيادة.. بعد الظهر وبعدما عادت طونيا إلى المنزل، جاء مايسون ليصحبها ثم اجتاز بالسيارة عشرين كيلو متراً وصولاً إلى أنسيانز.. أراد أن ينتظر حتى يراها آمنة في القطار، ولكنها كانت خائفة من عودة رايون إلى المنزل فيجدها هي واللاندروفر مختفيين فكان أن تركها وعاد. أما هي فتمكنت من الحصول على مقعد في القطار الليلي.. ولم تكن رحلة مريحة.. ولو كان معها ما يكفي من المال لنامت في مكان ما.. ولكن ما معها لا يكاد يكفيها للوصول إلى منزل زوجة عمها.. ولا تريد أن تبدأ حياتها الجديدة بالاقتراض.

نظرت حولها في الغرفة.. كان هناك سقف مرتفع منحوت تدعمه جدران عليها ستائر حريرية عاجية اللون، أما ستائر النوافذ فمن «البروكار» المشمشي.. وثمة سجادة شرقية مربعة في الغرفة.. كان هناك خزائن تضم بين جنباتها فضيات وكريستال ورأت مدفأة محفورة غير مستخدمة.. أدركت سيلا أن كل ما تراه في هذا المنزل يشير إلى أن زوجة عم أبيها في غاية الثراء.. لماذا لم يقل لها رايون هذا؟ ما كانت لتأتي لو عرفت.. أحست كأنها متسولة في منزل أمراء.

عادت السيدة لوفيجيه مع صينية عليها طبق من الخبز الطازج بالسكر

وقطع زبدة وإبريق عصير بارد. وكان على الصينية أيضاً الماء الذي طلبته سيلا أصلاً.

صاحت سيلا حين وضعت مدبرة المنزل الصينية أمامها:

ـ أوه.. حقاً.. ما كان يجب أن تزعجي نفسك!

ـ لا إزعاج مدام! أظنك جائعة والعصير طازج.

كان العصير منعشاً.. ثم انقضت على الخبز بحماس.. إنه الشيء ذاته يتكرر كلما استعادت وعيها من نوبة قيء.. أحست أنها أفضل حالاً.. ولكنها الآن متعبة وهذا ما جعلها تتخوف من المقابلة الآتية.

عادت السيدة لوفيجيه فيما كانت سيلا تمسح فمها بمنديل الطعام، وسألتها:

ـ أكان الطعام جيداً؟

هزت سيلا رأسها موافقة:

ـ شكراً لك.. كان لذيذاً.. هلا صحبتني إلى المدام داموراي؟

رافقت السيدة إلى الطابق الأول.. هنا شرفة تطل على الردهة في الأسفل.. بعد قليل توقفتا أمام باب أبيض مزدوج، قرعته السيدة بخفة.. فأتاها صوت من الداخل: أدخل.

أدخلت سيلا إلى غرفة جلوس فخمة سقفها مرتفع مزخرف وجدرانها مكسوة بحرير بنفسجي اللون. رأت أثاثاً أنيقاً يعود إلى مختلف الحقبات الفرنسية.. لكن المرأة الجالسة على الأريكة هي من انصبّ عليها اهتمام سيلا.. إنها زوجة عم أبيها.. ليليان داموراي.

ما إن شاهدت السيدة سيلا حتى هبّت على قدميها. دنت منها تحييها وتقبلها بحرارة على خديها.. ثم أمسكت بها على بعد ذراع تتأملها.. ثم قالت بإنكليزية لكنتها فرنسية:

ـ حسناً سيلا.. أهلاً بك في باريس.. شكراً لك مدام لوفيجيه.. بإمكانك الذهاب.

عندما أقفلت مدبرة المنزل الباب وراءها سحبت سيلا نفساً مضطرباً.. إن كان منزل ليليان داموراي يختلف كثيراً عما تصورت فإن

زوجة عم أبيها تختلف أكثر بكثير عما تصورته.. مع أنها لم تكن صغيرة وقدرت سيلا عمرها بالستين، ولكنها ليست نصف مقعدة كما تصورتها.. فلدى ليليان داموراي كافة قواها.. وهي أنيقة جذابة كمنزلها.. في أصابعها خواتم الماسية وحول جيدها عقد لؤلؤي يساوي ثروة.. وهذا ما جعل سيلا المرتدية الجينز الضيق والقميص الأحمر تشعر بأنها غير ملائمة لهذا المكان.

تابعت ليليان الكلام بحرارة:

ـ والآن.. إنها زيارة غير متوقعة.. لكنها زيارة أوافق عليها كل الموافقة.

جلست سيلا على حافة الأريكة متمنية لو أن المرأة لا ترحب بها على هذا النحو.

ـ شكراً لك.. إنه منزل جميل.. أليس كذلك؟

نظرت إليها ليليان بثبات:

ـ حقاً؟ لا أظنك قدمت إلى هنا لرؤيتي ولبحث أمور المنزل معي.

ابتسمت سيلا غصباً عنها:

ـ لا.. أظنك تنظرين إلى هذا على أنه وقاحة مني.. أعني المجيء إلى هنا.

ـ وقاحة؟ ما هذا؟ أتقصدين أنني قد أعترض؟

تنهدت سيلا:

ـ أجل.. كان عليّ أن أكتب لك.

عبست ليليان:

ـ لا حاجة بك إلى الاستئذان. أظنك جئت بمفردك.

ـ أوه.. أوه.. أجل.. هل.. تمانعين؟

هزت ليليان رأسها:

ـ لا.. وستبقين هنا.. بالتأكيد.

ارتبكت سيلا:

ـ سأبقى بضعة أيام فقط.. إن كان هذا ممكناً.

ـ ابقي ما شاء لك ذلك.. منزلي منزلك.

ضغطت ليليان على يد سيلا مطمئنة:

ـ أخبرتني مدام لوفيجيه أنك لم تكوني على ما يرام عندما وصلت.

تحركت سيلا بعدم ارتياح:

ـ أجل.. الرحلة أزعجتني على ما يبدو.

ـ سافرت ليلاً؟

ـ أجل.

ـ وسمح رايون بذلك؟

ترددت سيلا: «رايون لا يعرف.. إنه لا يعرف أين أنا».

هزت ليليان رأسها بهدوء وتفهم: لماذا؟

أراحت سيلا منكبيها على ركبتيها ودفنت وجهها بين يديها، ثم تمتمت:

ـ لقد تركته.

ـ فهمت.. لماذا؟ ألأنك حامل؟

ارتفع رأسها بحدة:

ـ كيف.. أعني.. كيف..

ـ يا طفلتي العزيزة.. لدي خبرة بغثيان الصباح.. وللسيدة لوفيجيه ستة أولاد.. وهذا ما لا يمكنك إخفاؤه في منزل نساء، سيلا.

غاصت سيلا في التنجيد الحريري الناعم.. وتنهدت عاجزة:

ـ ما كان يجب أن آتي إلى هنا.

عبست ليليان:

ـ ولِمَ لا؟ أنا لا أريحك يا طفلتي!

ـ لم أكن أعرف.. أترين.. تصورتك كخالتي التي ماتت قبل مجيئي إلى هنا لأعيش مع أبي.. لم أتصور مكاناً.. كهذا!

هزت ليليان رأسها:

ـ أنا لا أفهم.. أخاب أملك؟

جرّت سيلا نفسها لتستقيم في المقعد:

ـ يا الله..! لا.. مدام. لم يخب أملي ولكن لو عرفت أنك.. ثرية، لما كنت جئت.

ـ ولماذا لا؟

هزت سيلا كتفيها:

ـ أتتني فكرة مجنونة بأنك قد تقدمين لي يد المساعدة وبأنك ستعرفين ماذا عليّ أن أفعل.. فماذا تفعل فتاة مثلي، فتاة حامل بدون زوجها؟

ـ لكنني أستطيع مساعدتك سيلا.

هزت سيلا رأسها مجدداً:

ـ لا.. أنا.. أنا.. لا يمكنني قبول شيء منك مدام.

ولم تستطع إجبار نفسها على قول «عمتي».

ـ ليس لدي ما أعطيك إياه في المقابل.. فأنت مختلفة كلياً عما تصورتك.. ظننتك امرأة عجوز وحيدة.. سامحيني.. ظننتك امرأة قد ترحب ببعض الصحبة، امرأة بحاجة إلى مدبرة منزل. ولكن رسائلك لم تنصفك مدام.. أنا آسفة.. سأرحل حالما أحصل على بعض المال من رايون.

نظرت إليها ليليان بنفاد صبر:

ـ يا لهذا الكلام السخيف! إن الوضع بكل تأكيد أفضل هكذا وليس أسوأ! حسناً، أنا ثرية.. وماذا في هذا؟ أنا في الواقع وحيدة إلى حد كبير.. ليس لدي شيء.. ولا أحد.. لدي ممتلكات، أجل. لا أنكر هذا.. ولا أنكر كذلك أن هذه الممتلكات تعطيني الرضى والسعادة. ولكن صدقيني أنا مستعدة لتبادل كل هذا مقابل صحبة إنسان آخر.

أحست سيلا بالعطف:

ـ لديك على ما أظن من يهتم بك مدام!

ـ قولي لي.. من؟

ـ أنا واثقة أن مدام لوفيجيه تحترمك.

هزت رأسها:

ـ الخدم؟ أنا واثقة من احترامهم لي.. ولكن ليس للحب دخل في

علاقتنا.

أشارت سيلا بيدها عاجزة:

ـ بالتأكيد.. لك أولاد، أحفاد، مدام؟

ردت ليليان بهدوء:

ـ لي ابن.. أو.. بلى.. كان عندي ابن يوماً.. ولكنه لا يهتم أبداً بأمه.

أحست بشفقة غامرة تخيم عليها.. فجأة رأت المرأة التي كتبت لها تينك الرسالتين.. وكانت تجربة متواضعة:

ـ أما زال ابنك.. حياً مدام؟

شعرت بأن عليها أن تعرف شيئاً عن هذا الرجل الذي يهمل أمه هكذا.. مدت ليليان يدها تمسك إحدى يدي سيلا بينهما:

ـ أجل سيلا.. ابني حي وبصحة جيدة.. ويعيش في بلياز.

أظهر وجه سيلا عدم تصديقها، وتابعت ليليان:

ـ من تحملينه في أحشائك هو حفيدي عزيزتي.. الآن هل فهمت لماذا أريد منك أن تبقي هنا معي؟

***

٨ ـ حين يأتي القطاف

كانت غرفة سيلا تطل على ساحة في الجهة الأمامية من المنزل.. كانت أجمل غرفة سكنتها في حياتها. الأثاث عصري ومتناسق، وبدا متاعها القليل هزيلاً في الخزانة الكبيرة.

كانت شمس الشتاء قد تسربت من خلال المصاريع الخشبية، لكن في مثل هذه الساعة من بعد الظهر كانت قواها خائرة.. وفيما كانت مستلقية تحت الغطاء الحريري تمنت سيلا لو تستطيع رؤية مستقبلها بخوف أقل.. ولكن على الرغم من لطف ليليان داموراي كانت تشعر بوحدة رهيبة.

نهضت من السرير متنهدة وتوجهت إلى النافذة.. فتحت المصاريع الخشبية ونظرت إلى الأسفل نحو الساحة. بعد حديثها مع والدة رايون هذا الصباح نامت عدة ساعات والآن بدا أن إرهاقها قد زال تماماً.. ولكن عندما استرد جسمها عافيته استرد تفكيرها قوته، وأحست أن اليأس أصبح عقدة ملموسة في كيانها.. ماذا ستفعل؟

أبعد اكتشافها أن ليليان داموراي لم تكن فقط زوجة عم أبيها بل أم رايون كذلك، كل تفكير عن رأسها. لقد فسر هذا أموراً كثيرة.. أشياء قالها رايون خلال هذيانه.. رفضه المجيء إلى باريس.. وثمة أمور كثيرة ما تزال بلا تفسير.. ولكن ليليان نفسها كانت مستعدة للتفسير.. وبالتدريج اتضحت أسباب ابتعاد ابنها عنها.. وجعل هذا سيلا تدرك أن زواجهما كان مشؤوماً منذ البداية.

قالت ليليان: «مات والد رايون وهو في سن المراهقة، ولكن والده لم يكن شقيق جدك.. لا.. فزوجي الأول كان صناعياً. كان يجني أموالاً طائلة من الآلات التقنية، وأشياء أخرى. وقد رغب أن يسير رايون على خطاه.. ومن سوء الحظ أن والده مات ورايون لا يزال في الجامعة لذا لم يتمكن من استلام مركز أبيه.. قتل آلان في حادث تحطم طائرة.. وما من أحد تصور أنه قد يموت شاباً».

تنهدت ثم أردفت:

ـ انهارت الشركة.. ولحسن الحظ كان آلان قد اشترى لي أسهماً في شركات أخرى، فبقيت قادرة على إيفاء الديون.. ولكن شركته استولت عليها مؤسسة بارون.

عبست سيلا:

ـ اسم.. بارون سبق أن سمعته.

ـ لا شك في هذا إذا ذكر رايون أمامك اسم زوجته الأولى آنا بارون.

ـ طبعاً.. ذكره لي مرة.. ولم يضف شيئاً آخر.

ابتسمت ليليان بمرارة:

ـ لا يدهشني هذا.. كان زواجاً كارثة من البداية إلى النهاية. وكنت أنا الملامة بالتأكيد.

ـ أنت؟

ـ أجل.. عندما أتمّ رايون دراسته الجامعية وتخرّج، رتبت له أمر لقاء آنا في كل مناسبة.. كان في عقلي فكرة، وبما أننا جميعاً نتحرك في الدائرة الاجتماعية نفسها فلم يكن من الصعوبة رمي الاثنين في طريق بعضهما بعضاً.. كان والد آنا أكبر من زوجي بكثير، وكان على رأس مؤسسة بارون، وآنا وريثته الوحيدة.. هل ترين الآن أين كان عقلي يصب اهتمامه؟

أطرقت سيلا:

ـ كنت تأملين أن يسيطر رايون في النهاية على شركة أبيه.

ـ ليس هذا فقط سيلا.. بل كان طموحي أعظم وأكبر.. لقد رأيته

رئيس مجلس إدارة مؤسسة بارون..

هزت رأسها ندماً:

ـ وما أشد ما كنت غبية. طموحة جداً! وانظري ما جلب عليّ هذا الطموح!.. ولكن لا فائدة من البكاء على الأطلال. لقد فعلت ما فعلت وندمت بمرارة. تزوج رايون من آنا مع تشجيع مني.. وكان يجب أن أعرف أن زواجهما لن يدوم.. فآنا امرأة عابثة مولعة بالحفلات وشراء الملابس، ولا يمكن أن تثير اهتمام رجل كابني.

تنهدت ليليان بحدة:

ـ انفصلا بعد سنتين.. في البداية ظلّ رايون مع المؤسسة.. لكن اهتمامه بعمله بدأ يقل بالتدريج.. في ذاك الوقت كنا ما نزال أصدقاء.. وأخبرني أنه غير سعيد ببقائه موظفاً عند عائلة زوجته السابقة.. لكنني قلت له إن من الغباء التخلي عن وظيفته وثمة احتمال أن تعود المياه بينه وبين زوجته إلى مجاريها.

ترددت ليليان وتوتر وجهها:

ـ لكن هذا ما لم يحدث.. فقد بدأت آنا تلاحقه مجدداً.. وكأن عدم اهتمامه بها أثار رغبتها فيه.. فحدث شجار كبير في إحدى الأمسيات.. وكنت أعرف أن رايون يكرهها بسبب فجورها. ذلك المساء بالذات ذهبت إلى شقته تحاول إغواءه.

التوت شفتاها:

ـ أخبرني رايون بالتفاصيل فيما بعد ولهذا أعرف الكثير. لكنه طردها.. فركبت سيارتها وهي سيارة رياضية سريعة وقادتها بتهور و.. قتلت نفسها.

شهقت سيلا: «أوه.. لا!»

هزت ليليان رأسها ببطء:

ـ أوه.. بلى.. ولكنها لم تقتل نفسها عمداً.. فقد كانت أنانية كثيراً بحيث لا يمكن أن تقتل نفسها بإرادتها.. على أي حال، حين عرف رايون ما أصابها جاء إلى هنا، إلى منزلي وكان في حالة رهيبة

فاتهمني بأنني المسؤولة عن القضية المؤسفة كلها.. وأعتقد أنني كنت المسؤولة..

حاولت سيلا الاحتجاج فقاطعتها ليليان:

ـ لا.. لا عزيزتي. أعرف أنني أجبرته على ذلك الزواج. ما كان ليتزوج آنا أو مثيلاتها.. وكنت أنا خلفه أحثه وأدفعه.. فيما بعد اختفى فترة، وأظنه أمضى وقته في إيطاليا.. في النهاية، وعبر محاميه، عرفت أنه انضم إلى رجل اسمه لويس دامواراي في كروم العنب التي زرتها.. وكان ذلك الرجل والدك عزيزتي.

وضغطت على يد سيلا.

ـ لكن.. كيف أن اسمك..؟

ابتسمت ليليان:

ـ لقد تعرفت إلى رينيه دامواراي صدفة ولكنه لم يكن على علاقة بزراعة كروم العنب.. مرة أخرى تدخلت.. سمحت له بالخروج معي إلى هنا.. وما كل هذا إلا لأعرف أخبار ابني الذي لم يرد على رسائلي.. ولم أجرؤ على زيارة بلياز.. في النهاية طلب رينيه مني الزواج، وكنت قد أغرمت به فوافقت.. وكانت تلك نقطة سوداء أخرى ضدي بالنسبة لرايون.. لقد رأى زواجي محاولة مني للدخول إلى عائلة دامواراي. وأعتقد أن هذا صحيح.. لكن هذا لم يفدني.. فقد مات رينيه منذ سنوات عديدة وعدت أعيش بمفردي.

نظرت إلى سيلا، ورأت سيلا لماذا فكرت منذ البداية أن هناك ما هو مألوف في هذه النظرة.. فعيناها كعيني رايون.

ـ حين اكتشفت أن لويس مات وأنك تزوجت رايون.. لم أستطع إلا المحاولة مرة أخرى وعندما لم تردي، تصورت أن رايون منعك.

ـ لا.. لا.. لم يمنعني.. قال إن كنت أريد الذهاب إلى باريس فلأذهب.

ـ لكنه لا يريد المجيء معك!

ـ صحيح.

ـ ولم يذكر لك أنني أمه؟

تنهدت سيلا:

ـ لا.. لماذا لم يفعل؟

ـ عزيزتي.. لقد احتجت إلى شجاعة كبيرة لأجلس وأكتب لك.. لقد فكرت في أن علاقتي بأبيك قد تثير اهتمامك فتعملين على إقناع رايون.

ـ أنا؟ أقنع رايون؟

هزت ليليان رأسها بتفهم:

ـ هذا ما اعتقدته.. كان زواجكما سريعاً.. أعني بعد موت أبيك، فظننت أن هناك أكثر مما هو ظاهر.

ـ لقد ترك لنا والدي الأملاك مناصفة شرط أن نتزوج.

انتفضت ليليان:

ـ أوه.. لا! مسكين رايون! إذن لقد أجبر على زواجين.

لم يخطر هذا ببال سيلا حتى هذه اللحظة، لكن حين أدركته شعرت بالدمار.

ـ مع ذلك يجب أن تفهمي أنني لم أطلب منه الزواج بي.. ولم أرغب في الزواج به. على الأقل في البداية.. أنا.. كنت أكرهه. لم أكن أعرف شيئاً عنه فتصورت أنه استغل أبي.. ولكن فيما بعد اكتشفت أنه السبب في عدم إفلاس أبي الذي كانت صحته سيئة.. وكان الزواج زواج مصلحة. و.. ونجحنا هكذا.. في البداية.

ـ ثم.. ماذا حدث؟ هل استغلك رايون؟

كادت سيلا تضحك لولا جدية النقاش:

ـ لم يكن هو الملام. أنا.. وقعت في حبه.. و.. وبدأت.. أنا.. بدأت..

ـ تريدينه؟ آه! لا تكوني محرجة عزيزتي.. أعرف ما تحس به المرأة عندما تريد رجلاً. لقد أحببت آلان كثيراً وحين قتل تدمرت.. تابعي..

ـ وحدث المحتوم. ولم تكن الغلطة غلطة رايون.. كنت أنا

السبب.. فيما بعد غضب وطلب مني أن أغادر فرنسا وأعود إلى انكلترا.

هزت ليليان رأسها: «ورفضت؟»

كتمت أنفاسها شاهقة:

ـ أجل.. لم أرغب في تركه.. إنني أحبه.. وكان وجودي قربه يكفيني.

أبدت ليليان التفهم ولفت ذراعها حول كتفي سيلا.

ـ لا تتابعي.. أستطيع تصور ما تبقى.. حين اكتشفت أنك تتوقعين طفله خفت مما قد يقول. أعرف هذا الإحساس.

وضحكت ضحكة قصيرة قاسية.

ـ شعرت بأنني سأرفض شفقته عليّ.

ضمتها ليليان أكثر ثم تنهدت:

ـ يا طفلتي المسكينة! ولا يعرف رايون أين أنت؟

ـ لا أحد يعرف.. أوه.. إلا إذا انتزع شيئاً من مايسون.

ارتدت ليليان لتنظر إلى وجهها:

ـ مايسون؟ ومن هو مايسون؟

ـ إنه مايسون هاردلي رجل إنكليزي جاء بعد الميلاد مباشرة ليعلم الإنكليزية في مدرسة القرية.

ـ فهمت.. هذا الإنكليزي.. أهو صديقك؟

ـ يمكنك قول ذلك.. لقد أقلني إلى أنسيانز بالأمس لأتمكن من ركوب القطار ليلاً إلى باريس.

ـ كدت تقولين شيئاً مختلفاً.. فما هو؟

ـ لا شيء حقاً.

تنهدت متوردة الوجه وأضافت:

ـ آه! حسناً.. أظن أن رايون كان.. لم يحب أن أتصادق مع مايسون.

ـ لماذا؟

ـ عاد إلى المنزل بعد ظهر أحد الأيام ووجدنا نتكلم في المطبخ.. فغضب كثيراً! تلك الليلة كانت.. ليلة..

ـ حقاً؟ يبدو لي أن ابني غير متوازن كما جعلتني أفهم..

هزت رأسها:

ـ لكن.. كفى الآن.. فلنتكلم في وقت لاحق.. أقترح أن تريك المدام لوفيجيه الغرفة التي تحضرها لك لتستريحي قليلاً.. فالأمور تبدو دوماً أكثر إشراقاً حين لا يكون المرء متعباً.

هكذا وصلت سيلا إلى هذه الغرفة البهيجة وحمامها الخاص.. وغسلت التجهم عن جسدها تحت الماء.

الآن ارتدت إلى المرآة المثبتة على باب الخزانة. ونظرت إلى جسدها غير سعيدة، لم ترَ ما يدل على وجود طفل رايون في أحشائها ولا دليل على الحياة التي تنمو في داخلها.. لكن بعد بضعة أسابيع سيتضخم بطنها، وفي بضعة أشهر سيصبح كبيراً.

حين قُرع باب غرفتها فتحته لتسمح للخادمة ماري بإدخال الصينية.

قالت بأدب: «أرسلت مدام لوفيجيه وجبة صغيرة مدام.. العشاء سيتأخر وتظنك جائعة بعد فترة الراحة».

ارتعش فم سيلا وقالت بأدب:

ـ هذا لطف منها.. شكراً لك.

خرجت ماري فتأملت سيلا الصينية التي كان عليها طبق مرق لحم، وبعض الخبز الفرنسي، وحلوى الدراق الطري وكوب عصير فاكهة.

عادت ماري عندما كانت سيلا تنهي الحلوى وقالت مبتسمة:

ـ هل تشعرين أنك أفضل حالاً الآن مدام؟ آه.. هذا جيد! مدام داموراي في غرفة الجلوس.. إذا رغبت في الانضمام إليها أدلك على الطريق.

ابتسمت ليليان ووقفت ترحب بسيلا:

ـ آه.. تبدين أفضل بكثير عزيزتي.. هل تشعرين بالراحة؟

أجبرت سيلا نفسها على الابتسام:

- كثيراً.. ولقد تناولت منذ قليل وجبة سريعة!

- آه.. هكذا إذن.. اجلسي! هل حملت معك ثياباً غير هذه؟

عبست سيلا وهي تنظر إلى جينزها:

- نعم تنورة وكنزتين.

نظرت إليها ليليان مفكرة:

- إن ارتداء الثياب الأنيقة يستحق العناء عزيزتي.. ألم يقل لك أحد إنك جميلة؟

تورد وجه سيلا: أنت في غاية اللطف.

- لست لطيفة بل صادقة.. يجب أن نهتم بشراء بعض الملابس لك.. وكم سأحب ذلك.

- أوه.. لكن..

- دون لكن عزيزتي.. فأنا مصرّة.. لا يمكنك البقاء هنا معي ومقابلة أصدقائي وأنت مرتدية الجينز والكنزة.. إضافة إلى أن هذا ما ستتكلم عنه.. ألست باقية هنا؟

عقدت سيلا ذراعيها حول ركبتيها:

- تعرفين أنني لن أستطيع البقاء هنا.. ليس الآن.

- ولماذا لا؟

- لأنك والدة رايون.

ردت ليليان بصوت هامس متشدد:

- أهذا سبب لكي تغادري؟

- أوه.. أرجوك حاولي أن تفهمي.. إذا اكتشف أنني هنا.. سيظن أنني.. أستغل طيبتك الطية.

- إذا وجدك ابني هنا فسيظن العكس تماماً.. هل نسيت أنني ورايون.. لكن هذه سخافة.. بالتأكيد ستبقين هنا.. هذا بيتك.. أنت لست فقط قريبتي الوحيدة بل أنت كنتي أيضاً.. وإلى أين تذهب الابنة إلا إلى أمها في وقت كهذا؟

تأثرت سيلا بلطفها.. وقالت بلهفة:

- لكن كيف ستعرفينني إلى أصدقائك؟ أنا حامل، أنسيت؟ بعد أشهر قليلة سأصبح رهيبة المظهر!

ضحكت ليليان:

- بعد أشهر ستبدين أجمل مما أنت عليه الآن.. سنشتري لك فساتين حمل جميلة وستبدين رائعة! ألا تعرفين أن بشرة المرأة وشعرها ولونها يحتاج إلى ما يزيده إشراقاً خلال الحمل؟

تمتمت عن غير وعي منها:

- قال رايون إنني أعجبه في الفساتين الطويلة.

نظرت إليها ليليان بلطف ثم قالت بهدوء:

- يجب أن ندع رايون يعرف مكانك. تدركين هذا.. أليس كذلك؟

انتفضت سيلا:

- لا!.. أعني.. لماذا؟ كنت أفكر في إرسال رسالة له.

جاء دور ليليان لتقول لا:

- هذا غير عادل أو حكيم.. على أي حال إن كان ما تقولينه صحيحاً فلن يأتي إلى هنا.. لن يخاطر برؤيتي مرة أخرى من أجل ترتيبات مالية معك.. سنكتب له ونقول له أنك هنا بعد يوم أو يومين فلن يضيره أن ينتظر، وما من شك أنه سيكون مسروراً حين يعرف أنك على الأقل في بيئة محترمة.

فهمت سيلا منطق هذا الجدال ولكنها لم تكن سعيدة به.

- و.. والطفل؟

فكرت ليليان قليلاً:

- لا أعرف، هذا عائد إليك بالتأكيد. أنت تريدين الاحتفاظ به، أليس كذلك؟

ردت بلهفة: «بالتأكيد».

- عرفت هذا. أما بالنسبة لرايون.. فلست أدري.. أعتقد أن عليه آجلاً أم عاجلاً أن يعرف.. سنناقش هذا فيما بعد.. أما الآن فيكفي أنك هنا.

في المساء، وحول وجبة لذيذة قدمتها المدام لوفيجيه، تمكنت سيلا من الاسترخاء.. ومع أنها لم تكن مقتنعة بالبقاء هنا إلا أنها أجّلت التفكير في اتخاذ القرار بضعة أيام.. إنها عاجزة.. ولا تستطيع مساعدة نفسها.

لأن سيلا نامت بعد الظهر، ولأن ليليان كانت ملهوفة لسماع كل شيء عن حياتها في انكلترا وعن زواجها بابنها، كان الوقت متأخراً حين أوتا إلى النوم.. مع ذلك لم تكن سيلا تشعر بالنعاس.. هل يشعر رايون بالفضول أو باللهفة عليها؟ أم لعله سيتنفس الصعداء لأنها رحلت؟

كانت ليليان قد أقرضتها ثوب نوم من الحرير الأخضر الشاحب من الدانتيل، وفيما كانت تمشط شعرها فكرت بسخرية القدر لأنها ترتدي شيئاً أنيقاً رقيقاً كهذا لا يمكن أن يراه أحد سواها. وتنهدت.. هل هذا صحيح؟ هل تحتاج النساء إلى مزيد من الإشراق وهن حوامل؟ افترضت بشيء من التعاسة أن رجلاً يحب زوجته قد يشعر بشيء من الفخر بما يمتلك، لكن هذا كل شيء..

رمت الفرشاة جانباً.. وأطفأت كل الأنوار وتقدمت إلى النافذة. كانت أنوار الشارع تنير الساحة الباردة المعتمة.. وفيما كانت تراقب دخلت سيارة أجرة إلى الساحة وفكرت أن في سانت هيلين أشخاصاً يسهرون كثيراً.

ترجرجت السيارة فوق الحجارة السوداء التي ترصف الطريق ودارت حول الساحة ثم وقفت أمام منزل ليليان داموراي. اتسعت عينا سيلا إذ لا يمكن أن تتوقع ليليان زائراً في مثل هذا الوقت من الليل؟ فتح رجل الباب وترجل من السيارة رجل ضخم يرتدي معطفاً أسود، شعره الأشقر الفضي يلمع تحت أنوار مصباح الشارع.. نظرت سيلا.. ثم حدقت النظر.. هزت رأسها.. لا! إنها تتخيل. ليس الرجل في الساحة رايون بل لا يشبهه.. إنه شخص قادم إلى المنزل المجاور.. ولا شك أن مشاعرها هي التي رسمت صورة رايون فوق رجل غريب.

رن جرس الباب صاخباً فارتدت سيلا إلى الوراء حتى اصطدمت

بجدار غرفتها.. رن الجرس مجدداً فوضعت يديها على أذنيها.. ليس رايون.. ليس رايون.. وإن كان.. فماذا يريد؟ ولماذا جاء إلى منزل أمه الذي ابتعد عنه منذ تسع سنوات؟

دنت من باب غرفتها وفتحته بصمت.. كان شخص ما ينزل الدرج ليرد.. واعتقدت أنها ليليان.. فالسيدة لوفيجيه وماري نامتا منذ زمن طويل.. نظرت إلى ساعتها، إنها الثانية والنصف.. ماذا يفعل رايون هنا بحق الله؟

انفتح الباب وجرى تبادل سريع للحديث: رايون؟

ـ مرحباً أمي.

ـ لكن.. ماذا تفعل هنا؟

ـ هل سيلا هنا؟

ران صمت قصير ثم:

ـ ألا تظن أن من الأفضل أن تخبرني ماذا يجري؟.. لماذا يجب.. أن تكون سيلا هنا؟

أقفل الباب:

ـ حباً بالله أمي.. إن كانت هنا فقولي لي!

ـ أجل.. أجل.. في الواقع هي هنا.

ـ أوه.. الحمد لله! أين هي؟ أريد رؤيتها.

ـ في مثل هذا الوقت من الليل؟ رايون..

في لهجة ليليان اعتراض، لكن سيلا سمعت وقع قدميه وهو يرتقي الدرج فاستولى عليها الذعر، أغلقت باب غرفتها بسرعة وأسرعت إلى السرير تدس جسمها بين الأغطية وتغمض عينيها. ولكن قلبها كان يخفق بسرعة فاضحاً أمرها.

سمعت صوت رايون يسأل أمه:

ـ في أي غرفة وضعتها؟

وسمعت الأم تقول:

ـ رايون؟ أنت مجنون؟ سيلا نائمة.. ألا تظن أنك فعلت ما فيه

الكفاية بهذه الطفلة المسكينة؟

أخذ رايون يفتح الأبواب: أية غرفة؟

يا ليتها تستطيع أن تقول لليليان إنها تضيع وقتها.. ووصل إلى غرفتها وفتح الباب ثم أضاء النور.. فتحت سيلا عينيها فنظر إليها.. ثم هز رأسه مطمئناً.

ـ هذه هي.

ارتد إلى أمه:

ـ هل من مانع إن بقيت هنا؟

كانت ليليان تلف روبها الحريري حولها بشدة، ونظرت إلى سيلا بعجز:

ـ عزيزتي.. ماذا تريدين مني أن أفعل؟

رفعت سيلا نفسها على مرفق واحد، ولكن قبل أن ترد تدخل رايون:

ـ دعينا بمفردنا فقط.. أمي.. أرجوك.. أريد التحدث إلى سيلا.

قالت الأم: «لكن ألا يمكن الانتظار حتى الصباح؟..».

تمتم بنفاد صبر:

ـ حتى الصباح؟ يا إلهي! هل لديك فكرة عما مرّ بي؟ أتعرفين كيف كانت ليلتي البارحة؟ تتكلمين عن الانتظار حتى الصباح وكأن زيارتي هي زيارة اجتماعية.. إنها نهاية بحث طويل عن زوجتي.

رفعت ليليان قامتها:

ـ ولماذا تبحث عن زوجتك رايون ما دمت طلبت منها الرحيل؟

مرر أصابعه في شعره:

ـ هذا صحيح.. فعلت هذا.. فعلت.. لكن كان هذا.. أمي هذا شيء بيني وبين سيلا.. فدعيني أنهيه!

أصرت ليليان بثبات:

ـ لقد كانت سيلا منزعجة كثيراً حين وصلت.. فلماذا أفترض أنها تريد مكالمتك؟ تركت لك رسالة تخبرك فيها أنها ستكتب رسالة لك بعد

أيام.. لماذا لم تستطع الانتظار؟ لماذا جئت إلى هنا؟ كي تضطهد الفتاة؟ بأي حق تقتحم منزلي في مثل هذا الوقت من الليل وتطالب بالتحدث إليها؟

وجدت سيلا نفسها مضطرة إلى قول شيء: ليليان..

لكن رايون كان ينظر إلى أمه، وتمتم:

ـ يا إلهي.. أنت تريدين الانتقام.. أليس كذلك؟ حسناً سيكون لك ما تريدين.. أنا هنا لأنني أحبها وكدت أفقد عقلي منذ اختفائها! هل يجيب هذا عن سؤالك؟

تمتمت ليليان برضى: فهمت..

نظرت سيلا إلى رايون بذهول وتمتمت:

ـ ماذا.. ماذا قلت؟

نظر إلى أمه وقال:

ـ الآن.. هلا تركتنا بمفردنا؟

هزت ليليان رأسها ببطء: إن كان هذا ما تريده سيلا.

كانت سيلا قد جلست في السرير، والغطاء مرتفع حتى ذقنها، وعيناها واسعتان بعدم تصديق.. هزت رأسها فتنهدت ليليان وانسحبت.

وقف رايون بضع لحظات ينظر إلى سيلا ثم ارتدّ ليخلع معطفه الذي رماه بغير اهتمام على الطاولة قرب النافذة، ثم قال:

ـ بحق الله سيلا.. لماذا فعلت هذا؟

أجابت بصوت غير ثابت:

ـ أليس هذا ما أردته أنت؟

ـ لماذا؟ أبسبب ما حدث منذ ليلتين؟ هل أخفتك؟ لم أقصد إخافتك لكنك دفعتني.. حسناً؟

تنهدت سيلا: كان ذلك أمراً ثانوياً.. فأنا لم أترك المنزل لأنني خائفة منك. كنت سأتركك على أي حال.

طغت موجة ألم على وجهه.. ورأت في نور المصباح مدى تعبه وتوتره.

ـ فهمت.. هل.. لهذا علاقة بمايسون هاردلي؟

ـ لا.. لا.. طبعاً لا.

ـ لكنه أقلّك إلى أنسيانز.. كان يعرف إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ لا.

لم يصدقها وتمتم برضى:

ـ حسناً.. على أي حال أظنه نال أكثر مما يستحق.

سألت بلهفة وفزع:

ـ ماذا تعني؟ كيف.. كيف عرفت أنه أقلّني إلى أنسيانز؟

ـ لأن اللاندروڤر تعطل وهو عائد به! هل لديك فكرة عما فكرت فيه.. لو تعلمين ما تصورته حين اكتشفت أنك لم تختفي وحدك بل اللاندروڤر ومايسون أيضاً؟

لعقت سيلا شفتيها:

ـ ماذا.. ماذا حدث؟

دار رايون حول الغرفة:

ـ لم أعِ شيئاً.. وأعماني غضبي.. هذا ما حدث! ولا أدري كيف تصرفت.. وبدا لي أن وقتاً طويلاً سيمر قبل أن يخف الألم الذي سببه رحيلك.

نظرت إليه عاجزة:

ـ أوه.. رايون! و.. و.. مايسون؟

تنهد:

ـ كنت واثقاً أنكما هربتما معاً.. وعندما أوصل هاردلي اللاندروڤر في ساعة متأخرة من الليل كدت أقضي عليه من شدة الضرب!

ـ أوه.. لا!

هز رايون رأسه:

ـ كنت قد فقدت نصف عقلي، ألا تفهمين هذا؟ لكن عندما تمكن من النطق باسم بينيلان، أدركت أنه استعان بجان ابن زوج هاربيت، ليجر اللاندروڤر إلى هنا.

ـ هل.. هل هو.. بخير؟

التوت شفتا رايون:

ـ أعتقد أن أنفه مكسور.. ولا شك أن لديه بضع كدمات يستحقها.. لكنه سيعيش.

ـ و.. قال لك أين ذهبت؟

ـ ليس بالضبط.. لا. لكنني كنت أعرف أنك لا تملكين من المال إلا القليل وهو لا يخوّلك العودة إلى بريطانيا لهذا توقعت أن تأتي إلى هنا.

ـ إلى أمك!

ـ وهل أخبرتك؟

ـ ولماذا لم تخبرني؟ أوه.. رايون، ما ألطفها!

ـ حقاً؟ وهل تنوين البقاء هنا؟

حركت كتفيها بارتجاف: أبقى.. هنا؟

دنا ليقف قرب السرير ثم نظر إليها:

ـ حسناً؟ أتنوين البقاء؟

ـ هل.. هل هذا.. ما تريده؟

هز رأسه بنفاد صبر:

ـ رباه! سيلا، ليس لدي حقوق عليك.. لقد خسرتها منذ شهرين.

مدت يدها تمرر أصابعها على ذراعه:

ـ لماذا جئت إلى هنا رايون؟ لماذا لم تنتظر حتى أكتب لك رسالة؟

اشتد ضغط رايون على فكه ولكنه لم يوقف مداعبة أصابعها لذراعه..

أخيراً تمتم إنما بغير ثبات:

ـ أنا.. أعتقد أن علينا توضيح أمر ما. لقد رأيتك قبل أن تحضري إلى بلياز.

أطبقت أصابعها على ذراعه: رأيتني؟ كيف؟

ـ سافرت قبل سنتين إلى انكلترا بناء على تعليمات والدك.. ذهبت

إلى المكتبة حيث كنت تعملين.. وراقبتك فترة..

ـ لكن.. لماذا؟

ـ أراد والدك معرفة شيء عنك.. أردت أن يعرف ما أنت عليه.. وقلت له!

هزت سيلا رأسها:

ـ ماذا تحاول أن تقول لي؟

نظر إليها بعينين أصبحتا فجأة سوداوين:

ـ كنت أعرف ماذا خطط والدك.. ووافقت.

ـ على.. على زواجنا؟

مرر أصابعه في شعره:

ـ أجل.. أجل.. أوه.. أدرك الآن أن هذا كان جنونياً! كنت كبيراً جداً عليك.. أضف إلى هذا أنني لم أكن أعرف شيئاً عنك.. لكن عندما أتيت إلى بلياز أحيتك، وكرهت نفسي من أجل هذا.

ـ لكن.. لماذا؟

ـ سيلا.. أنا أكبر منك بعشرين سنة.. آه! لقد رسمت خطة.. كنا ستتزوج ثم كنت أريد أن تتقدمي قليلاً بالسن وبعد ذلك أعلمك بما أشعر.. لكن الأمور لم تسر على هذا المنوال.. فكل ما كنت تفعلينه كان يجعلني أحس بك أكثر فأكثر، وبسبب هذا كنت أؤلمك باستمرار. كرهت ما تدفعينني إلى الشعور به.

فك ربطة العنق وأزالها عن ياقته:

ـ كان زواجي السابق كارثة حقيقية وهذا أمر أخبرتك به أمي بلا شك.. لذا لم أجرؤ على المخاطرة بتدمير فرص زواجنا.. ولكنك غضبت بسبب هاربيت وغرت أنا من هاردلي! كان ذلك كالمتفجرة التي انفجرت في وجهي.

ـ لكنك طلبت مني الرحيل!

ـ أعرف. وماذا كان بإمكاني أن أفعل غير هذا؟ لم أكن أعرف ما إذا كان بالإمكان أن أتركك وشأنك بعد تلك.. الليلة.. فكرت أنك لو

ابتعدت ونضجتِ قليلاً لنظرت إليَّ بطريقة مختلفة عندما آتي لأفتش عنك.

ـ و.. هاربيت؟

ـ وماذا عن هاربيت؟

ـ هل كانت.. تعوّض عليك؟

صاح بعنف: لا.. لا.. بالتأكيد لا.. حسناً، كنت أقضي معها الكثير من أوقاتي يوماً.. ولكن منذ تلك الرحلة إلى انكلترا.. منذ عرفتك.. لم تدخل إلى حياتي امرأة أخرى..

تنهد:

ـ لست ناسكاً. ولكن..

كانت سيلا ترتعش فلم تستطع الجلوس هادئة: والآن؟

تحرك متململاً: هذا عائد إليك.

ـ أتريد مني أن أعود؟

مرر يده على مؤخرة عنقه:

ـ طبعاً.. سيلا.. أيمكننا أن نجرب مرة أخرى؟ أيمكننا أن نجرب لننجح زواجنا؟

نظرت سيلا إليه لحظة ثم نهضت من الفراش..

قالت ببطء:

ـ قد نستطيع.. لكن، يجب أن تكون الأمور مختلفة.

ضاقت عيناه:

ـ كيف.. مختلفة؟

ارتدت لتنظر إليه بثبات، ويدها على قلبها:

ـ أريد أن أشاركك كل شيء بما في ذلك.. فراشك.

نظر إليها لحظات مفكراً ثم شهق شهقة فرح وضمها بين ذراعيه.. وسألها بصوت أجش:

ـ هل تعرفين ما تقولين؟

همست وهي تعقد ذراعيها حول عنقه:

ـ أحبك رايون.. والآن أرجوك.. توقف عن الكلام.. وصالحني..

بعد ساعات استيقظت سيلا فوجدت أن الصباح قد طلع.. ولم تجرؤ أن تدير رأسها لئلا تكتشف أنها بمفردها.. وعندما استدارت وجدت رايون يغط في النوم إلى جانبها.. كان مستلقياً على ظهره، ولم تستطع مقاومة إغراء معانقته.

تمتم متكاسلاً وهو يفتح عينيه:

ـ أووه.. ليس علينا أن نستيقظ الآن.. أليس كذلك؟

ابتسمت سيلا:

ـ لا أدري ما ستقول أمك. لم تكن تتوقع مجيئك إلى هنا. يجب أن تكلمها.

تأوه ثم دفن وجهه في شعرها:

ـ لا شيء كان ليبقيني بعيداً.. ولكنني موافق.. سأتكلم معها.. ولكن فيما بعد..

تنهدت سيلا لأنها عرفت أن لحظة الحقيقة دنت.

ـ رايون.. لدي ما أخبرك به.

قبل رأسها:

ـ ألا يمكن أن ينتظر؟

لم يكن من السهل مقاومته ولكنها قالت بثبات:

ـ لا.. رايون.. سأرزق بطفل!

تسمَّر رايون للحظات طويلة.. ثم رفع نفسه على مرفقه ينظر إليها وعيناه قاتمتان تثيران الاضطراب:

ـ أنت حامل؟

هزت رأسها إيجاباً خائفة من ردة فعله. ولكنه أحنى رأسه يعانقها بلهفة:

ـ أوه.. سيلا.. ألهذا.. السبب تركتني؟

ـ كنت خائفة.. خائفة أن تكرهني لأن حملي سيذكرك بما حدث!

ـ أوه سيلا.. ما أشد ما كنت غبياً! هل تسامحينني؟

ـ أنت.. لست.. غاضباً؟

ـ غاضب؟ غاضب؟.. بل أنا مسرور! لكن أنت؟ أنت صغيرة..! كان بإمكاني الانتظار..

مررت أصابعها على شفتيه تسكته:

ـ لا تكن سخيفاً.. سأكون في العشرين بعد شهرين.. وهو عمر مناسب ليكون لي زوج وعائلة..

ـ و.. أمي.. أتعرف بهذا؟

ـ نعم عرفت.. لم أكن بخير صباح أمس.

عبس بقلق: وهذا الصباح؟

ابتسمت:

ـ لا يحدث هذا إلا حين أنهض من الفراش.. أرادت مني أمك أن أبقى هنا.. إنها وحيدة رايون.. ألا يمكنك.. أن تنسى.. الماضي؟

لامس خدها بحنان:

ـ الماضي منسي منذ زمن بعيد.. لكن الناس يتكبرون أحياناً ويتجنبون الاعتذار.. أما الآن فالأمور مختلفة. أنت هنا والجليد تكسّر.. فلا تخافي.. سأكون منذ الآن فصاعداً متسامحاً.

لم تكن سيلا تعرف أن بإمكان السعادة أن تكون هكذا: دافئة، رائعة، مفرحة في الوقت عينه..

سألت: «متى تعود إلى بلياز؟»

تمطى بكسل:

ـ لا أدري.. ربما بعد يوم أو يومين.. سنمضي يومين برفقة أمي بما أننا هنا الآن.

ـ كنت آمل أن تقول هذا.. وربما.. ربما حين ألد ستأتي لتقيم معنا.

ـ سنرى.. أعتقد أن عليّ الاعتذار لهاردلي كذلك، مع أنني ما زلت ساخطاً بسبب تدخله.

www.elromancia.com

ضحكت سيلا ثم قالت مازحة:

- يجب أن تشعر بالامتنان له.. لو لم يقلني إلى أنسيانز لما أتيت لتبحث عني.. ولمرت شهور قبل أن نكتشف الحقيقة.

نظر إليها رايون بقلق وتمتم:

- أهذا رأيك؟ أتعتقدين أن ابني لن يعلق عن وجوده قبل هذه الأشهر الطويلة؟

لم تستطع إنكار حقيقة قوله..

حين يأتي القطاف.. ستكون في بلياز.

* * *

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة